صور من حياة الرسول

(٢)

الهجرة إلى المدينة المنورة



دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله الذى ذلت له الرقاب، وسجد له ما فى السموات والأرض طوعًا وكرهًا، والصلاة والسلام على النبى الرسول الأكرم، والداعى إلى الخير الأعظم.

وبعد :

فإن الهجرة ذكرى حية فى نفس كل مؤمن، وهى جديرة بالإجلال والتعظيم، ففيها كمال الإيمان والتضحية، والبذل والفداء، وعن طريقها تحققت الحرية للدعوة والداعين.

وهجرة الرسول ﷺ تتوالى صورها على الزمن، وتتجدد حاملة العبرة والعظة فى كل المواقف، والحديث عن الهجرة هو الحديث عن الصراع بين الخير والشر، بين الحق والباطل، ومن هنا كان الحديث عنها عبارة عن سلسلة من المواقف التى ثبت فيها أهل الحق، وضربت الذلة والمسكنة على أهل الباطل.

ولقد رغب الله سبحانه وتعالى فى الهجرة، ووعد عليها

الأجر العظيم فقال عز من قائل : ﴿والَّذين هاجَرُوا فى اللهِ من بَعْد ما ظُلمُوا لنبوِّئنَّهم فى الدُّنْيا حَسَنةً ولأَجْرُ الآخِرةِ أَكْبَرُ لو كانوا يَعْلَمُونَ﴾ [النحل الآية ٤١].

ولقد ظل الرسول ﷺ ثلاثة عشر عامًا فى مكة فى كفاح مرير، والدعوة ما زالت فى المهد، وكان جو مكة فاسدًا غير قابل لزرع بذور الدعوة فى نفوس الذين حاربوها منذ نشأتها، ومن هنا لم يكن هناك مفر من البحث عن أرض طيبة لغرس هذا الدين الجديد، وهذه التعاليم الربانية، فكانت يثرب هى الأرض الموعودة التى كتب الله لهذه الدعوة أن تنطلق منها الشرارة الأولى لإخراج البشرية من الظلمات إلى النور، وأطلق عليها بعد الهجرة «المدينة المنورة».

وقد أظهرت الهجرة النبوية بطولات نادرة ما زال رنين هذه البطولات يقرع الآذان، وسيبقى ما بقى الزمان، وستحدثك هذه الصور التى بين يديك عن هذه البطولات فى أبهى صورة وأجمل بيان، ومنها وبعدها دخل الناس فى دين الله أفواجًا وانتصر دين الله وتحطم الكفر وأهله حتى جاء أمر الله تعالى بقوله : ﴿اليَوْم أَكْملتُ لكُم دينكُم وأتْمَمْتُ عليكُم نِعمتى ورضيت لكُم الإسْلامَ دِينًا﴾ [المائدة الآية ٣].

[دار المعارف]

عام الحزن

انتشار الدعوة فى قبائل العرب

ذكر ابن سعد أن مقاطعة قريش لبنى هاشم وبنى المطلب دامت ثلاث سنين، وأن خروجهم من الشّعب كان فى السنة العاشرة؛ وذكر غيره أنها دامت سنتين، وأن خروجهم كان فى السنة التاسعة. ومهما يكن من أمر هذه الفترة فإنها كانت فترة عسيرة شاقة، لاقى فيها رسول الله ﷺ وقومه من الصعاب ما لا يوصف، وتوقفت فيها دعوة الإسلام أو كادت؛ فقد كان المحصورون فى الشعب لا يستطيعون الخروج منه إلا فى مواسم الحج، وكان رسول الله ﷺ إذا حضر الموسم وتعرض للقبائل يدعوها إلى الإسلام، جعلت قريش تكذبه وتحذر الناس منه، حتى لا يجتمعوا عليه ولا يستمعوا لقوله.

ولكن هذه الفترة على رغم ما كان فيها من قسوة ومشقة، كانت منبعًا من منابع الخير للدعوة؛ فإن هذا الظلم الذى صبته قريش على رسول الله وقومه، قد عطف قلوب العرب على بنى هاشم وبنى المطلب، ولفت أنظارهم إلى هذه الدعوة التى يلاقى

محمد فى سبيلها كل هذا العناء، ثم لا يتخلى عنها ولا يتركها. وقد زاد العرب عطفًا على قوم رسول الله واهتمامًا بدعوته، أنهم صبروا للمحنة صبر الكرام، واحتملوا كل ما عانوا خلالها من عنت وظلم، دون أن يتخلوا عن رسول الله ﷺ، أو يتزحزحوا عن حمايته قيدَ شعرة. لذلك لم يكد ينفك الحصارُ، ويخرج رسول الله وقومه من الشعب، حتى أقبل على الإسلام كثير من الناس فأسلموا، وحتى ذاعت أنباء الدعوة بين القبائل، وتردد صداها فى بلاد العرب.

وكأنما شعرت قريش بشىء من الخجل من سوء ما فعلت ببنى هاشم وبنى المطلب، فاستخذت وخففت من غُلَوائها شيئًا، وسكتت عن اضطهاد الرسول وصحبه فترة من الزمن؛ فكانت هذه الفترة أهدأ فترة قضاها المسلمون، منذ أخذت قريش فى اضطهادهم وفتنتهم. وليس معنى هذا أن السلام قد ساد بينهم وبين قريش، ولكنها كانت هدنة مؤقتة، جعل كل من الفريقين فيها ينظر ما عدوُّه فاعل.

مرض أبى طالب

ومرض أبو طالب خلال هذه الفترة وثَقُل[1]؛ فخشيت قريش أن يموت أبو طالب، والأمر بينها وبين محمد على ما هو

(١) ثقل: شارف الموت.

عليه من العـداوة، وأرادت أن تـأخذ حـذْرَها وحيـطتها، وأن تحسم الأمر قبل أن يتفـاقم، وأن تتـق مـا عسى أن يـكون إذا قويت شوكة المسلمين واشتد سـاعدهم؛ فـذهبوا إلى أبي طـالب ليفصل بينهم وبين ابن أخيه.

روى ابن إسحاق: «أن أبا طالب لما اشتكى وثقل، قـالت قريش بعضها لبعض: «إن حمزة وعمر قد أسلما، وقد فشا أمر محمد فى قبائل قريش كلها فانطلقوا بنا إلى أبي طالب، فليـأخذ لنا على ابن أخيه وليعطيه منا، فـإنا والله مـا نـأمن أن يَبْـتَزونا أمرنا».. ومشى رجال من أشرافهم فقـالوا: «يـا أبـا طـالب، إنك منا حيث قد علمت، وقد حَضَرَك ما ترى وتخوفنا عليـك. وقد علمت الذى بيننا وبين ابن أخيك فـادعه، فخـذ لنـا منـه وخذ له منا، ليكف عنا ولنكف عنـه، وليَـدَعنا وديننـا ولنـدعه ودينه».. فبعث أبو طالب إليه فجاء، فقـال لـه: «يـا ابـن أخي، هؤلاء أشراف قومك قد اجتمعوا إليك، ليعطوك وليأخذوا منك» فقال رسول الله صلى الله عليـه وسـلم: «يـاعم، كلمـة واحدة تعطونها، تملكون بها العرب، وتدين لكم بهـا العجـم». فقال أبو جهـل: «نعـم – وأبيـك – وعشر كلمات!» قـال: «تقولون: لا إله إلا الله، وتخلعون مـا تعبـدون مـن دونـه». فصفقوا بأيديهم وقالوا: «يا محمد، أتريد أن تجعـل الآلهـة إلهـا

واحدًا ؟ إن أمرك لعجب ! » . . ثم قال بعضهم لبعض : « إنه - والله - ما هذا الرجل بمعطيكم شيئًا مما تريدون، فانطلقوا وامضوا على دين آبائكم، حتى يحكم الله بينكم وبينه » . . ثم تفرقوا » .

مصيبتان عظيمتان

وأراد الله أن تنقضي وشيكًا هذه الهدنة؛ فلم يلبث أبو طالب أن مات، ولم تلبث خديجة أن ماتت على أثره، وأصبح رسول الله ﷺ أمام عدوه وجهًا لوجه وتحققت بذلك لقريش أمنية طالما تمنتها وتطلعت إليها : هي أن تنفرد برسول الله وأن تبلغ من أذاه ما يَشفي غليلها، ويُرضي نزعة الحقد الكمين فى صدورها. ولله فى ذلك حكمة هو مقدّرها، وأمر هو بالغُه.

لقد كان أبو طالب حصنًا حصينًا يحوط رسول الله ﷺ من جميع نواحيه، ويدفع عنه كثيرًا من الأذى والضر. وكانت خديجة سكَنَه الذى يأوى إليه، ويستجير به كلما كَرَبه الهم، وضاق صدره بما يلقى من عناد القوم، فيجد عندها الفرج والراحة والعزاء. فلما مات أبو طالب وخديجة، واجتمعت على رسول الله ﷺ مصيبتان عظيمتان : فَقْدُ النصيرِ وفَقْدُ المجيرِ! فاشتد به

الحزن وبلغ منه كل مبلغ، حتى لقد سمى هذا العام «عام الحزن».

فقد النصير بموت أبى طالب

نعم، كان موت أبى طالب مصيبة عظيمة؛ فقد انكشف بموته ظهر محمد للقوم، ووجدت قريش منفذًا إليه فنالت منه ما لم تكن تنال فى حياة أبى طالب، وتعرّض له سفهاؤها يؤذونه بألسنتهم وأيديهم؛ حتى لقد تحركت الحمية له فى صدر عدوه أبى لهب، فهم أن ينهض لحمايته كما كان ينهض أبو طالب؛ فجاءه يومًا فقال له: «يا محمد امضِ لِما أردت، وما كنت صانعًا إذ كان أبو طالب حيًّا فاصنعه؛ فلا - واللات - لا يصل إليك شيء حتى أموت..!؟ ولكن شياطين قريش جعلوا يحتالون على أبى لهب، ويدسوُّن بينه وبين رسول الله ﷺ، حتى تخلى عن نصرته، وعدل عما كان قد عزم عليه من حمايته. وحينذاك خلا الجو لقريش، فاشتدوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبلغوا من أذاه ما لم يكونوا يبلغون قبل موت أبى طالب.

وفقد الأنيس بموت خديجة

وكذلك كان موت خديجة مصيبة أخرى؛ فقد تركت فى

حياة رسول الله ﷺ فراغًا هائلًا، أحس به إحساسًا قويًا، وحزن بسببه حزنًا شديدًا، وغلب عليه الوجد حتى غُشى عليه.. لقد غدا البيت بموتها خَلاءً مُوحشًا لا أنيس به ولا سمير..! نعم، كان فى البيت ابنتاه فاطمة وأم كلثوم، وكان فيه مولاه زيد بن حارثة، وكان فيه حاضنته أم أيمن، وربما كان فيه عدا أولئك بعض الأهل والعشيرة، وبعض الخدم والأتباع. ولكن ماذا عسى أن يغنى هؤلاء عن رجل قد حمل على كاهله أثقل مهمة يستطيع أن ينهض بها بشر؟ وماذا عسى أن يغنى هؤلاء عن رجل أحاط به الأعداء من جميع نواحيه، فهم ينُوشونه[1] من كل جانب، ويريدون أن يحطموه قبل أن يؤدى هذه المهمة الثقيلة، ويبلغ هذه الرسالة الجليلة..؟ ماذا عسى أن تغنى عنه فتاتان فى سن الغَضارة[2]، لم تفارق صغراهما بعد سذاجة الطفولة، ولم تغادر كبراهما بعد غرارة الشباب؟ ماذا عسى أن يغنى عنه خادم أو خادمة أو عدد من الخدم والأتباع..؟ لقد يكون هؤلاء جميعًا حِملًا ثقيلًا على كاهله، يزيد عِبْئه عبئًا وهمه همًّا..

أين منه ذلك القلب الكبير، الذى كان يشكو إليه

---

(١) ينوشونه : يتناولونه.

(٢) سن الغضارة : حداثة السن وقلة التجربة.

فيُشْكيه[١]، ويركن إليه فيواسيه؟ أين منه ذلك العقل الحصيف، الذى كان له وزير صدق فى الشدة والرخاء، وعونًا يستعين به على البأساء والضراء..؟ أين منه تلك النفس المخلصة، التى حملت عنه أثقاله، وشاركته آلامه وآماله..؟ أين منه خديجة تلك الزوج الوفية، التى آمنت به حين كفر الناس، وصدقته حين كذبه الناس، وأغنته بمالها، وآزرته برأيها وعزيمتها..؟ أين منه ذلك الجو الأنيس الذى كان يغمره بالحب والحنان، فيمسح عنه أشجانه، ويزيل عنه أدرانه، ويمده بالعزم والقوة، ويعينه على مجالدة هؤلاء الصم البكم الذين لا يعقلون..؟

لقد ذهب هذا كله بذهاب أبى طالب وخديجة، وأصبح الآن بحيث لا يجد له فى الخارج نصيرًا، ولا فى الداخل أنيسًا؛ فكان حريًّا أن يشتد به الحزن، وأن تستبد به الوحدة، وأن يُقلَّ الخروج ويلازم البيت حتى يجعل الله له من همه فرجًا، ومن ضيقه مخرجًا.

اجتراء قريش على النبى ﷺ

قال ابن سعد فى الطبقات: لما توفى أبو طالب وخديجة بنت خويلد - وكان بينهما شهر وخمسة أيام - اجتمعت على

---

(١) يشكيه: يزيل عنه آلام الشكوى.

رسول الله ﷺ مصيبتان، فلزم بيته وأقل الخروج، ونالت منه قريش ما لم تكن تنال ولا تطمع به.

وقال صاحب السيرة النبوية والآثار المحمدية: «لما مات أبو طالب اشتدت قريش على النبي، صلى الله عليه وسلم، ونالت منه من الأذى ما لم تكن تطمع فيه فى حياة أبى طالب. فدخل، صلى الله عليه وسلم، يومًا بيته والتراب على رأسه، فقامت إليه بعض بناته وجعلت تزيله عن رأسه وتبكى، ورسول الله يقول لها: «لا تبكى يا بنية، فإن الله مانع أباك!».. وكان، صلى الله عليه وسلم، يقول: «ما نالت منى قريش شيئًا أكرهه حتى مات أبو طالب».. ولما رأى قريشًا تهجموا عليه قال: «يا عم، ما أسرع ما وجَدت فَقْدك»!!»

يضعون السلا عليه وهو يصلى

وروى مسلم عن ابن مسعود قال: بينما رسول الله ﷺ يصلى عند البيت، وأبو جهل وأصحاب له جلوس، وقد نُحرت جزُورٌ بالأمس، فقال أبو جهل: أيكم يقوم إلى سلا[1] جزور بنى فلان، فيأخذه فيضعه فى كتفى محمد إذا سجد؟ فانبعث أشقى القوم فأخذه، فلما سجد النبى وضعه بين كتفيه (قال):

(١) السلا: غلاف الجنين فى بطن أمه وهو المسمى بالخلاص، والجزور الناقة.

فاستضحكوا وجعل يميل بعضُهم على بعض، وأنا قائم أنظر، لو كان لى مَنَعةٌ طرحته عن ظهر رسول الله، صلى الله عليه وسلم، والنبي صلى الله عليه وسلم ساجد ما يرفع رأسه.. حتى انطلق إنسان فأخبر فاطمة، فجاءت - وهى جُويْرية[1] - فطرحته عنه، ثم أقبلت عليهم تشتمهم. فلما قضى النبى صلاته، رفع رأسه ثم دعا عليهم - وكان إذا دعا دعا ثلاثًا، وإذا سأل سأل ثلاثًا - ثم قال: «اللهم عليك بقريش!» - ثلاث مرات - فلما سمعوا صوته ذهب عنهم الضحك، وخافوا دعوته، ثم قال: «اللهم عليك بأبى جهل بن هشام، وعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، والوليد بن عُقْبة، وأمية بن خلف، وعقبة بن أبى مُعيط» - وذكر السابع ولم أحفظه - فوالذى بعث محمدًا بالحق، لقد رأيت الذين سَمّى صرّعى[2] يوم بدر، ثم سُحبوا إلى القَلِيب[3] قليب بدر.

ويخنقونه وهو قائم فى المسجد

وروى ابن إسحاق عن عبد الله بن عمرو بن العاص: أنه حضر قريشًا يومًا وقد اجتمع أشرافهم فى الحِجْر، فذكروا رسول

---

(١) جويرية: فتاة صغيرة.

(٢) صرعى: قتلى.

(٣) القليب: البئر القديمة المهجورة.

الله صلى الله عليه وسلم، فقالوا: ما رأينا مثل ما صبرنا عليه من أمر هذا الرجل قط! سفّه أحلامنا، وشتم آباءنا وعاب ديننا، وفرق جماعتنا، وسب آلهتنا،.. لقد صبرنا على أمر عظيم! فبينا هم فى ذلك إذ طلع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأقبل يمشى حتى استلم الركن.. ثم مر بهم طائفًا بالبيت، فلما مر بهم غَمَزُوه ببعض القول، فعُرف ذلك فى وجه رسول الله ، صلى الله عليه وسلم، فلما مر بهم الثانية غمزُوه بمثلها، فعرف ذلك فى وجه رسول الله ﷺ، ثم مر بهم الثالثة فغمزوه بمثلها. فوقف ثم قال: «أتسمعون يا معشر قريش؟ أما والذى نفسى بيده لقد جئتكم بالذبح!» (قال): فأخذت القوم كلمته، حتى ما منهم رجلٌ إلا كأنما على رأسه طائر واقع. حتى إن أشدهم فيه وصَاةً قبل ذلك، ليرفَؤه[1] بأحسن ما يجد من القول، حتى إنه ليقول: انصرف يا أبا القاسم، فوالله ما كنت جهولاً.. (قال): فانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم. حتى إذا كان الغد اجتمعوا فى الحجر وأنا معهم، فقال بعضهم لبعض: ذكرتم ما بلغ منكم وما بلغكم منه، حتى إذا باداكم بما تكرهون تركتموه! فبيناهم، فى ذلك طلع رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فوثبوا إليه وثبة رجل واحد، وأحاطوا به

(١) يرفؤه: يتملقه ويلاطفه.

يقولون : أنت الذى تقول كذا وكذا ؟ - لما كان يقول من عيب آلهتهم ودينهم - فيقول رسول الله، صلى الله عليه وسلم : « نعم، أنا الذى أقول ذلك » (قال) : فلقد رأيت رجلاً منهم أخذ بمجمع ردائه؛ فقام أبو بكر - رضى الله عنه - دونه، وهو يبكى ويقول : ﴿أتقتلون رجلاً أن يقول ربى الله ؟﴾.. وذكر ابن إسحاق : أن أبا بكر رجع يومئذ وقد صَدَعوا فرْق رأسه مما جبذوه بلحيته، وكان رجلاً كثير الشَّعر.

وروى ابن كثير عن ابن إسحاق : أن بعض أعداء النبى ﷺ من جيرانه، كان يضع رَحِمَ الشاة فى بُرْمته[1] إذا نُصبت له، فكانوا إذا طرحوا شيئًا من ذلك يحمله على عود، ثم يقف به على بابه ثم يقول : « يا بنى عبد مناف، أى جوار هذا » ؟ ثم يلقيه فى الطريق.

صمود النبى لإيذاء قريش

لقد لقى رسول الله ﷺ من أذى قريش ما أعنتَه وشق عليه، وكان جديرًا أن يُلين قناتَه، وأن يزحزحه - ولو شيئًا قليلاً - عن ذلك الموقف الصُّلب الذى وقفه منها. كما لقى من إغرائها ما كان جديرًا أن يعدِل به إلى مُداهنتها والميل معها؛

---

(١) البرمة : القدر من الفخار يطبخ فيها.

وقد عرضت عليه قريش كل ما يرضى مطامع الطامعين، وترضَّته بما ليس وراءه زيادةً لمستزيد. فلو أنه كان بشرًا غير مؤيَّد بروح الله، لما استطاع أن يحتمل أذاهم ولا أن يقاوم إغراءهم، ولكان من المحتمل أن يميل إلى ناحيتهم بعض الميل، وأن يترضاهم ولو بعض الترضي. ولكنه رسول الله والله من ورائه يؤيده بقوته، ويُثَبِّته بتثبيته، ويعينه على احتمال ما ينالونه به من الأذى، وعلى مقاومة ما يخدعونه به من مُغْرِيات.

لقد كان اضطهادهم - حقًّا - شديد الوطأة، وكان عُرُوضهم - حقًّا - شديدة الإغراء.. ولولا أن الله ثبَّت قلب نبيه ﷺ، وأيده بحوله وقوته، لزعزعه الإيذاء الذى تعرض له، ولبهره الإغراء الذى عرض عليه.. وهذه إحدى المِنَن التى مَنَّ الله بها على رسوله إذ يقول له: ﴿وإن كادوا لَيَفْتِنُونَك عن الذى أوحيْنا إليك لِتَفترى علينا غَيره، وإذًا لاتَّخذُوك خليلا * ولولا أنْ ثَبَّتناك لقد كِدْتَ تركنُ إليهم شيئًا قليلاً * إذًا لأَذَقْناك ضِعْفَ الحياةِ وضعفَ المماتِ، ثم لا تَجِدُ لك علينا نصيرًا *﴾[1].

(١) سورة الإسراء الآيات ٧٣ - ٧٥.

مواقف التحدى

النبي لا يتزحزح عن موقفه

أخفقت كل المحاولات التى أرادت قريش أن تثنى بها رسول الله ﷺ عن دعوته، أو أن تقف تيارها الجارف عن السير فى طريقه. وكان الموقف الأخير الذى وقفه. منها رسول الله قبيل وفاة عمه أبى طالب، دليلا على أنه مصمم على الوصول بهذه الدعوة إلى غايتها، مهما كلفه ذلك. وكانت الكلمة التى ألقاها إلى عمه أبى طالب يوم أحْرجته قريش، وخيَّرته بين أن يكف عنها ابن أخيه أو تكون الحرب بينها وبينه حتى يَهلِك أحد الفريقين. . كانت هذه الكلمة هى الدستور الذى وضع به رسول الله ﷺ لنفسه خطة السير فى هذه الدعوة، حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه. لقد قال له عمه يَوْمَذاك : « يا ابن أخى، أبقِ علىّ وعلى نفسك، ولا تحملنى من الأمر ما لا أطيق ». فكان جوابه على ذلك : « ياعم، والله لو وضعوا الشمس فى يمينى، والقمر فى يسارى، على أن أترك هذا الأمر،

ما تركته، حتى يظهره الله أو أهلك دونَه». ولم يكن حينذاك كثير الأنصار، ولم تكن دعوته قد استفاض أمرها وانتشر خبرها كما هى اليوم ومع ذلك صمم على أن يسير بها إلى النهاية؛ فكانت هذه الكلمة هى الدستور الذى وضعه لنفسه فلم يَحِد عنه قِيدَ شعرة.

لقد بذلت قريش فى هذا السبيل كل ما تستطيع من جُهد، وتوسلت إليه بكل ما تستطيع من حيلة، واستباحت ما يجوز وما لا يجوز فى عرف المروءة، وأتت من الأعمال ما قد لا يتصوره العقل، وثابرت وصابرت فى ذلك السنينَ الطوال. ولكنها بعد كل ذلك أدركت أن محمدًا لن ترهبه القوة مهما بلغت، ولن يخدعه الإغراء مهما عظُم، وأن كل محاولة لتحويله عن طريق هذه الدعوة لا تُجدى ولا تفيد؛ فأرادت أن تأتيه من طريق التعجيز والتحدى، لعلها بذلك تستطيع أن تثبّط همته، أو تكشف عجزه للناس فينصرفوا عنه وعن دعوته. فليطالبوه إذن بالمعجزات، ولَيتحدَّوْه أن يقدم برهانًا على صدق نبوته كما فعل غيره من الرسل والأنبياء. لقد أتى موسى قومه بالمعجزات وأتى عيسى قومه بالمعجزات، وأتى كل رسول قومه بمعجزة دلت على صدقه فيما يدعيه عن ربه؛ فإن كان محمد رسولا حيًّا ﴿فَلْيأْتِنا بِآيَة كما أُرْسِل الأولون﴾، فإن عجز

عن تقديم هذا الدليل فقد انكشف أمره للناس، وتبين لهم أنه دجال يفترى على الله الكذب.

قريش تتحدى بطلب المعجزات

وكذلك اجتمع الملأ من قريش يدبرون ويقدرون، حتى خيل إليهم أنهم قد أحكموا الخطة ودبروا الأمر.. ثم أرسلوا إلى رسول الله ﷺ ينبئونه بأن أشراف قومه فى انتظاره، يريدون أن يجتمعوا به ليكلموه. فأسرع إليهم رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وفى نفسه أمل قوى بأن الله قد هداهم إلى الإيمان، وأنهم عدلوا بأنفسهم عن خطة العناد التى انتهجوها، بعد أن تبين لهم وجه الحق فيما جاءهم به. فلما أن اجتمع بهم أخذوا يُلينون له القول، ويستدرجونه بالمداهنة والملاطفة، ويَعِدونه الوعود ويمنونه الأمانى، ويعاتبونه فيما أدخله على قومه من شقاق وما جاءهم به من خلاف، ويعرضون عليه كل ترضية يريدها ليرجع إلى دينهم، ويترك ما جاءهم به من هذا الدين الذى سفه به أحلامهم، وكفر آباءهم، وعاب آلهتهم. ثم عادوا يلوّحون له بما عرضوا عليه من قبل، من الملك والسلطان، والمال والثروة، والطب والعلاج، وما إلى ذلك من وسائل الإغراء، التى تُستمال بها النفوس، وتُستهوى بها القلوب، وتُشترَى بها الضمائر.

فلما رأوا أنه لا يقبل منهم شيئًا، وأنه مصر على السير فى طريقه، انقلبوا عليه يتحدّوْنه.. يطالبونه بالمعجزات، ويستعجلونه بالعذاب الذى توعدهم به إن كان رسولا.

روى ابن إسحاق عن سعيد بن جُبَير وعن عِكْرمة مولى عبد الله بن عباس، عن ابن عباس رضى الله عنه وعن أبيه: «أن أشراف قريش من كل قبيلة اجتمعوا بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة، ثم قال بعضهم لبعض: ابعثوا إلى محمد فكلموه، وخاصموه حتى تُعذِروا فيه[1]. فبعثوا إليه أن أشراف قومك قد اجتمعوا إليك ليكلموك، فائتهم. فجاءهم، صلى الله عليه وسلم، سريعًا، وهو يظن أنْ قد بدا لهم فيما كلمهم فيه بَداء - وكان عليهم حريصًا يحب رشدهم ويَعِزّ عليه عَنَتُهم - حتى جلس إليهم، فقالوا له: «يا محمد، إنا قد بعثنا إليك لنكلمك، وإنا - والله - ما نعلم رجلا من العرب أدخل على قومه مثل ما أدخلت على قومك.. لقد شتمت الآباء، وعبت الدين، وسبّبْت الآلهة، وسفهت الأحلام، وفرقت الجماعة، فما بقى أمر قبيح إلا وجئته فيما بيننا وبينك - أو كما قالوا له - فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مالا، جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا؛ وإن كنت إنما تطلب به الشرف

---

(١) تعذروا فيه: جادلوه حتى تقيموا عليه الحجة وتبينوا عذركم للناس فى معاداته.

فينا، فنحن نسودك علينا؛ وإن كنت تريد به مُلكًا، ملّكناك علينا؛ وإن كان هذا الذى يأتيك رئيًّا[1] تراه قد غلب عليك - فربما كان ذلك - بذلنا لك أموالنا فى طلب الطب لك، حتى نُبْرئك منه أو نُعْذر فيك».

فقال لهم رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «ما بى ما تقولون.. ما جئت بما جئتكم به أطلب أموالكم، ولا الشرف فيكم، ولا الملك عليكم؛ ولكن الله بعثنى إليكم رسولا، وأنزل على كتابًا وأمرنى أن أكون لكم بشيرًا ونذيرًا، فبلغتكم رسالاتى ربى ونصحت لكم. فإن تقبلوا منى ما جئتكم به فهو حظكم فى الدنيا والآخرة؛ وإن تردوه على أصبرْ لأمر الله، حتى يحكم الله بينى وبينكم» - أو كما قال، صلى الله عليه وسلم.

قالوا: «يا محمد، فإن كنت غير قابل منا شيئًا مما عرضناه عليك، فإنك قد علمت أنه ليس من الناس أحد أضيقَ بلدًا ولا أقل ماء ولا أشدَّ عيشًا منا. فسَلْ ربك الذى بعثك بما بعثك به، فلْيُسَيِّرْ عنا هذه الجبال التى قد ضيقت علينا، ولْيبسُطْ لنا بلادنا، وليفجِّر لنا فيها أنهارًا كأنهار الشام والعراق، ولْيبعثْ لنا مَن مضى من آبائنا؛ وليكن فيمن يبعث لنا قصيُّ بن كلاب

(١) الرئى: كانوا يسمون التابع من الجن رئيًا.

فإنه كان شيخَ صِدْق، فنسأله عما تقول، أحق هو أم باطل. فإن صدقوك وصنعت ما سألناك، صدقناك وعرفنا منزلتك من الله، وأنه بعثك رسولا كما تقول».

فقال لهم صلوات الله وسلامه عليه: «ما بهذا بعثت إليكم؛ إنما جئتكم من الله بما بعثني به، وقد بلغتكم ما أرسلت به إليكم، فإن تقبلوه منى فهو حظكم فى الدنيا والآخرة، وإن تردوه علىّ أصبر لأمر الله تعالى حتى يحكم الله بينى وبينكم».

قالوا: «فإذا لم تفعل هذا لنا فخُذْ لنفسك: سَلْ ربك أن يبعث معك مَلَكًا يصدقك بما تقول، ويراجعنا عنك. وسله فليجعل لك جِنانًا وقصورًا وكنوزًا من ذهب وفضة، يغنيك بها عما نراك تبتغى؛ فإنك تقوم بالأسواق كما نقوم، وتلتمس المعاش كما نلتمسه. حتى نعرف فضلك ومنزلتك من ربك، إن كنت رسولا كما تزعم».

فقال لهم رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «ما أنا بفاعل، وما أنا بالذى يسأل ربه هذا؛ وما بعثت إليكم بهذا، ولكن الله بعثنى بشيرًا ونذيرًا - أو كما قال - فإن تقبلوا ما جئتكم به فهو حظكم فى الدنيا والآخرة، وإن تردوه على أصبر لأمر الله، حتى يحكم الله بينى وبينكم».

قالوا : «فأسْقط السماء علينا كِسَفًا، كما زعمت أن ربك إنْ شاء فعل؛ فإنا لا نؤمن لك إلا أن تفعل» فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم : «ذلك إلى الله، إن شاء أن يفعله بكم فعل».

قالوا : «يا محمد، أفما علم ربك أننا سنجلس معك، ونسألك عما سألناك عنه، ونطلب منك ما نطلب، فيتقدم إليك فيعلّمك ما تراجعنا به، ويخبرك ما هو صانع فى ذلك بنا، إذ لم نقبل منك ما جئتنا به؟.. إنه قد بلغنا أنك إنما يعلمك رجل باليمامة يقال له : «الرحمن»، وإنا - والله - لا نؤمن بالرحمن أبدًا.. فقد أعْذَرْنا إليك يا محمد، وإنا - والله - لا نتركك وما بلغت منا حتى نُهلكك أو تهلكنا..!»

فلما قالوا ذلك لرسول الله، صلى الله عليه وسلم، قام عنهم، وقام معه عبد الله بن أبى أمية بن المغيرة - وهو ابن عمته - فقال له : «يا محمد، عرض عليك قومك ما عرضوا فلم تقبل منهم. ثم سألوك لأنفسهم أمورًا ليعرفوا بها منزلتك من الله كما تقول ويصدقوك ويتبعوك، فلم تفعل. ثم سألوك أن تأخذ لنفسك ما يعرفون به فضلك عليهم ومنزلتك من الله، فلم تفعل. ثم سألوك أن تعجل لهم بعض ما تخوفهم به من العذاب، فلم تفعل - أو كما قال له - فوالله لا أومن بك

أبدًا، حتى تتخذ إلى السماء سُلَّما، ثم ترقى فيه وأنا أنظر إليك حتى تأتيها، ثم تأتى ومعك أربعة من الملائكة يشهدون لك أنك كما تقول.. وايمُ الله لو فعلت ذلك، ما ظننت أنى أصدقك..! »

ثم انصرف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وانصرف رسول الله إلى أهله حزينًا آسفًا، لما فاته مما كان يطمع به من قومه حين دعوه، ولِمَا رأى من مباعدتهم إياه.

استخدام القوة

فلما قام عنهم رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قال أبو جهل : « يا معشر قريش، إن محمدًا قد أبى إلا ما ترون من عيب ديننا، وشتم آبائنا، وتسفيه أحلامنا، وسب آلهتنا. وإنى أعاهد الله لأجلسنَّ له غدًا بحجر ما أُطيق حمله، فإذا سجد فى صلاته فَضَخْت به رأسه، فأسلِمونى عند ذلك أو امنعونى. فليصنع بعد ذلك بنو عبد مناف ما بدا لهم ». قالوا : « والله لا نسلمك لشىء أبدًا، فامضِ لما تريد ».

فلما أصبح أبو جهل أخذ حجرًا كما وَصَف، ثم جلس لرسول الله ينتظره، وغدا رسول الله، صلى الله عليه وسلم، كما كان يغدو. وكان، صلى الله عليه وسلم، بمكة وقِبْلَتُه إلى

الشام، فكان إذا صلى صلى بين الركن اليمانى والحجر الأسود، وجعل الكعبة بينه وبين الشام. وقام رسول الله، وقد غدت قريش فجلسوا فى أنديتهم، ينتظرون ما أبو جهل فاعل.

فلما سجد رسول الله، صلى الله عليه وسلم، احتمل أبو جهل الحجر، ثم أقبل نحوه، حتى إذا دنا منه رجع منهزمًا مُنْتَقَعًا لونُه، مرعوبًا قد يَبِست يداه على حجَره حتى قذف الحجر من يده. وقامت إليه رجال قريش فقالوا له: «مالك يا أبا الحكم؟» قال: «قمت إليه لأفعل به ما قلت لكم البارحة؛ فلما دنوت منه عرض لى دونه فَحْلٌ من الإبل، لا والله ما رأيت مثل هامته ولا مثل قصَرّته[1] ولا أنيابه لفحل قط؛ فهمّ بى يريد أن يأكلنى..»

قال ابن إسحاق: فذُكر لى أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قال: «ذلك جبريل عليه السلام. لو دنا لأخذه».

الرسول يحزن لعناد قريش

وكان رسول الله ﷺ يعلم علم اليقين أن الله يرعاه ويحوطه ويعصمه من الناس، وأن قريشًا مهما طغت وبغت لا تستطيع

---

(١) القصرة: أصل العنق. وهو يعنى هنا ضخامة رقبته وطولها.

أن تنال منه منالا، فكان يبلغهم رسالات ربه دون أن يخشى بأس أحد منهم. ولكن صدره كان يضيق بما يلق من تكذيبهم، وبما يجد من صدودهم وعنادهم، وتذهبُ نفسه حَسَرات عليهم كلما رآهم يقفون موقف العناد من دعوة الحق، وهم أهله الأدنَوْن، وعشيرته الأقربُون، وأوْلى الناس به، وأحقهم أن ينتفعوا بما جاءهم به من الخير، وأجدرهم أن يصدقوه فيما يبلغ عن ربه، وهو الصادق الذى لم يجربوا عليه كذبًا قط، والأمين الذى لم يألُهم نصحًا ولم يُضمر لهم كيدًا. وكان يشُق عليه أن يتحداه أهله وعشيرته هذا التحدى، وأن يتهموه بالجنون والسحر والكهانة، وقد جاءهم بما فيه صلاحهم وسعادتهم فى الدنيا والآخرة، وأن يكذبوه فيما جاء به من الحق الواضح والآيات البينات.

وكم تمنى لو أن الله هداهم إلى الإيمان فآمنوا ودخلوا فى رحمة الله مع الداخلين، وكم تمنى لو أن الله أجابهم إلى ما يطلبون من المعجزات، عسى أن يكون ذلك سببًا فى هدايتهم. ولكن الله العليم بما كان وما يكون، قد علم أنهم ﴿لا يؤمنون ولو جاءتهم كُلُّ آية﴾. وكان، سبحانه، يعلم ما يجد رسوله بسبب ذلك من الحزن والهم، وما يشعر به من الضيق والألم؛ فكان يخفف عنه ويواسيه بما يُلقى فى نفسه من أسباب السكينة،

وبما يقص عليه من أنباء الذين سبقوه من الرسل والأنبياء، وما كان من صبرهم على ما كانوا يلاقون من التكذيب والأذى حتى أتاهم نصر الله؛ ويحثه على أن يتأسى بهم، فيصبر كما صبروا، ويترقب النصر من الله كما ترقبوا، ويؤكد له أن نصر الله قريب، وأن وعد الله حق، وأن العاقبة للتقوى.

ربه يخفف عنه ويثبته

وقد أنزل الله على رسوله ﷺ فى ذلك آيات كثيرة: منها ما يشتمل على أنباء الأمم السابقة ومواقفهم من الأنبياء الذين أرسلوا إليهم، وما كان من نصر الله للمؤمنين وخذلانه للكافرين. ومنها ما يكشف عن سنن الله فى الكون ونواميسه فى الوجود، وأنها سنن ثابتة لا تتبدل ولا تتحول مهما تغير الزمان والمكان، وأن من هذه السنن أن يكون فى الناس كافر ومؤمن، وأن يكون المجرمون أعداء المرسلين، وأن يكذَّب الرسل ويُؤْذَوا فى كل أمة حتى يأتيهم النصر من عند الله، وأنه ما أرسل الله من رسول ولا نَبِى إلا تمنى أن يهدى الله قومه فيؤمنوا به جميعًا، ولكن الشيطان يقف فى طريق هذه الأمْنيّة، ليصد الناس عن سبيل الله، فينخدع بتغريره من حقت عليهم الضلالة من مرضى القلوب وقساتها، ولا يَخْلُص الإيمان إلا إلى قلوب الذين أنار

الله بصائرهم بنور المعرفة، وكتب فى قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه [1].

وكان الهدف الذى ترمى إليه هذه الآيات هو تأييد الرسول ﷺ وتثبيته، حتى يهدأ خاطره ويطمئن قلبه. وقد تعددت هذه الآيات وتنوعت، وسلكت إلى هذه الغاية كل مسلك؛ فكان منها ما يحمل معنى التعزية، ومنها ما يحمل معنى العتاب، ومنها ما يحمل معنى التحذير من اليأس، ومنها ما يحمل معنى التنبيه إلى سنن الله فى الكون، ومنها ما يحمل معنى الحث على التأسى بمن سبق من الرسل، ومنها ما يحمل معنى التشجيع، ومنها ما يحمل معنى التأكيد بأن هؤلاء لن يؤمنوا مهما جاءهم من الآيات والمعجزات.

وقد جمعت الآيات الأربع التالية مالم يجمع غيرها من هذه الأغراض: فقد عزى الله فيها رسوله، وعاتبه، وحذره، وواساه، وشجعه، ونبهه إلى سننه فى الكون، ثم أيأسه من إيمان

(١) هذا الغرض – فيما أرى – هو ما رمت إليه الآيات الكريمة من قوله تعالى فى سورة الحج: ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته، فينسخ الله ما يلقى الشيطان ثم يحكم الله آياته، والله عليم حكيم * ليجعل ما يلقى الشيطان فتنة للذين فى قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم، وإن الظالمين لفى شقاق بعيد * وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم، وإن الله لهادى الذين آمنوا إلى صراط مستقيم﴾ آيات ٥٢ – ٥٤.

هؤلاء المعاندين من قومه؛ وذلك إذ يقول سبحانه فى سورة الأنعام :

﴿قد نعلم إنه ليَحْزُنُك الذى يقولون، فإنهم لا يكذِّبونك ولكن الظالمين بآيات الله يَجْحَدون * ولقد كُذِّبت رُسُلٌ من قبلِك فصبروا على ما كُذبوا وأُوذُوا حتى أَتاهم نصرُنا ولا مُبَدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبأ المرسلين * وإن كان كبُر عليك إعراضُهم فإن استطعت أن تبتغى نفقًا فى الأرض أو سُلَّمًا فى السماء فتأتيهم بآية ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونَنَّ من الجاهلين * إنما يستجيبُ الذين يسمعون والموتى يبعثهم الله ثم إليه يرجعون﴾[1].

وقد أيقن رسول الله ألا خير فى هؤلاء المعاندين، ولا أمل فى إيمانهم، وأن الخير قد يكون فى التحول عنهم، والاتجاه إلى غيرهم من الناس؛ ﴿فعسى الله أن يأتى بالفتح أو أمرٍ من عنده فيُصبحوا على ما أسرُّوا فى أنفسهم نادمين﴾[2].

---

(١) سورة الأنعام الآيات ٣٣ - ٣٦.

(٢) سورة المائدة الآية ٥٢.

الخروج إلى الطائف

يئس النبي من قريش

أيقن رسول الله ﷺ أن الملأ من قريش سيظلون فيما هم فيه من عناد وكفر، وأنهم لن يؤمنوا حتى يأتيهم الله بعذاب من عنده أو بأيدى المؤمنين؛ فتولى عنهم وانتظر قضاء الله فيهم، وعزم على أن يتوجه بدعوته إلى غيرهم. وكانت قبيلة «ثقيف» بالطائف أولَ من فكر رسول الله ﷺ فى دعوتهم إلى الإسلام بعد قريش، وكانت له بثقيف صلات من الرَّحِم تدعوه إلى أن يتوجه إليهم بدعوته، فقد اسْتُرضع، صلى الله عليه وسلم، فى بادية بنى سعد؛ وبادية بنى سعد جزء من بادية الطائف، فأهل الطائف من هذه الناحية يُعْتبرون أخوال رسول الله ﷺ من الرضاعة، فهم أقربُ القبائل رحِمًا إليه بعد قريش. وقد أشاد بهذه الصلة خطيبهم يوم حُنَيْن. إذ جعل يستعطف النبى على أسارى قومه، ويذكره بهذه الرحم التى تجمع بينهم وبينه، ويقول فيما يقول: «... يا رسول الله، إنما فى هذه الحظائر من كان يكفُلك من عماتك وخالاتك وحواضنك. وقد حضنّاك فى

حجورنا، وأرضعناك بثُديِّنا.. ونحن مع ذلك أصلك وعشيرتك».. إلى آخر ما قال فى خطبته تلك، مما أثار فى نفس الرسول عاطفة الرحمة لهؤلاء الأهل والعشيرة، فرد عليهم كل ما أخذ منهم، وجعل يستعطف الناس لهم حتى أرضاهم.

فاتجه نحو ثقيف

كان من الطبيعى إذن أن يتجه رسول الله ﷺ إلى هؤلاء الرّحم، ليعرض عليهم دين الحق، وليطلب النصر والمنعة فيهم، حتى يبلغ رسالة ربه، بعد أن تنكرت له قريش، ووقفت منه موقف العناد والصد عن سبيل الله. وكذلك فعل صلى الله عليه وسلم؛ فقد خرج إلى الطائف فى شوال من السنة العاشرة يلتمس النصر والمنعة عند ثقيف. والشُّقَّة بين مكة والطائف ليست شقة سهلة؛ فهى مسافة تزيد على مائة وعشرين ميلاً، يقطعها الراكب فى نحو أربعة أيام، بين جبال وَعْرة، ووهاد مقفرة. وقد آثر رسول الله ﷺ أن يقطع هذه الشقة ماشيًا، لأنه - فيما يُظَن - قد خرج إلى هذا القصد خُفية، حتى لا تعلم قريش بوجهه الذى يريده. ولعله كان يقدر عواقب الإخفاق لو أخفق، حتى لا تشمت به قريش وتشتد فى طغيانها عليه. وأكثر الرواة على أنه لم يكن فى هذه الرحلة منفردًا، وأن مولاه زيد بن حارثة كان فى صحبته.

ثقيف تحرص على دينها

وكانت الطائف فى ذلك الحين مقرّ عبادة « اللات » . واللاتُ صنم كانت تعبده ثقيف وتعظمه، وتحتفل به احتفال قريش بأصنامها، وقد بنت له بيتًا وجعلت له سَدَنَةً وكسوة؛ وكانوا يسيرون إلى ذلك البيت، ويضاهئون به الكعبة، ويحرّمون واديه. وكانت قريش وجميع العرب يعظمون « اللات »، كما كانوا يعظمون « هُبل » أعظم أصنام الكعبة.

وكان بين ثقيف وقريش صلات من المودة والمنفعة متبادلَة منذ القدم، وكانت ثقيف تحرص على أن تظل هذه الصلات قائمة بينها وبين قريش، وكانت ثقيف قد سمعت بدعوة رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وعلمت بما كان بينه وبين قريش من خلاف ومناوأة. وكانت تعلم أن قريشًا إنما تناوئ عن بيتها، مخافة أن تنصرف عنه العرب فلا تحج إليه، وعن أصنامها مخافة أن تنحط منزلتها فى نفوس العرب، فتنحط تبعًا لذلك منزلة قريش. وكذلك كانت ثقيف تخشى أن تتأثر منزلة « اللات » بدعوة الإسلام، وكان فوق ذلك تحرص على رضا قريش، وتريد ألا تقطع ما بينها وبينها من صلات أو لعله كان كذلك.

ومهما يكن السبب، فإن ثقيفًا لم تستجب لدعوة الرسول

ﷺ ولم تحسن لقاءه؛ فقد أقام صلى الله عليه وسلم، بينهم عشرة أيام، لا يدع أحدًا من أشرافهم إلا كلمه وعرض عليه الإسلام، وطلب إليه أن يمنعه وينصره حتى يبلغ عن ربه، ولكن أحدًا منهم لم يجب دعوته، لا رجلاً ولا امرأة، ولا حرًّا ولا عبدًا، ولا شريفًا ولا وضيعًا؛ فرجع عن الطائف محزونًا كسير القلب، يُحس ألم الصدمة إحساسًا قويًّا، ويشعر بخيبة الأمل فيهم شعورا مضاعفًا.

أشراف ثقيف تسخر من النبي

وكان أشد ما لقي رسول الله ﷺ من أشراف ثقيف، ما لقيه من أبناء عمرو بن عُمير بن عَوْف، وهم عبدُ ياليل وأخواه مسعودٌ وحبيب، فقد ذهب صلى الله عليه وسلم، إليهم، وهم يومئذ سادات قومهم، وعرض عليهم دعوته، وطلب إليهم أن يمنعوه حتى يبلغ عن ربه، فلم يجد عندهم رغبة فيما دعاهم إليه. بل لم يجد منهم نَخْوَة أهل المروءة، ولا بشاشة أهل الكرم، فقد استقبلوه جميعًا فى ارتياب وشك، وردوا عليه فى استهزاء وسخرية، وقال له أحدهم ساخرًا: «ما وجد الله أحدًا يرسله غيرك»! وقال له الآخر متهكما: «والله لا أكلمك أبدًا.. إن كنت رسولاً - كما تقول - فأنت أعظم خطرًا من أن أرد عليك؛ وإن كنت تكذب على الله لما ينبغى أن

أكلمك »! أما الثالث فقد تحدى بأن يهتك أستار الكعبة إن كان الله أرسل محمدًا رسولاً.

وعلم رسول الله ﷺ من رد هؤلاء الثلاثة أنه لا أملَ في ثقيف وخشي أن تعلم قريش بما كان من أمره؛ فتقدم إليهم راجيًا أن يكتموا عليه، ولا يُفْشُوا ما كان بينهم وبينه، ولكنهم لم يستجيبوا له. وكأنما كانوا أشد حرصًا على إفشاء الأمر منهم على كتمانه، وكانوا على مودة قريش أحرص منهم على ستر محمد ابن عبد الله في موقفه ذاك؛ فلم تلبث أنباؤه أن ذاعت وشاعت في قريش.

وتسلط عليه سفهاؤها

وكرهت ثقيف مُقام رسول الله ﷺ بينها، وخشيت عواقبه، وخافت أن يصيبها ما أصاب قريشًا من اضطراب الأمر وفساد ذات البين، فقالوا له: «يا محمد اخرجْ من بلدنا والحق بما شئت من الأرض، فإنا نخاف على أحداثنا وضعفائنا أن تفتنهم». ولم يجد رسول الله ﷺ بُدًّا من أن ينصرف عنهم، دون أن يستجيب له أحد منهم.

ولم تكن ثقيف كريمة في استقبال رسول الله ﷺ ولا في تشييعها إياه؛ فقد أغروا به سفهاءهم، وسلطوا عليه عبيدهم

وصبيانهم يَسبُّونه ويصيحون به، حتى اجتمع عليه الناس وقعدوا له على طريقه صفين؛ فلما مر، صلى الله عليه وسلم بين الصفين، أخذوا يرشقُونه بالحجارة، فجعل لا يرفع رجلاً ولا يضعها إلا رَضَخوها بالحجارة، حتى دَميت رجلاه، وتخضبت نعلاه بالدماء. وكان كلما أزلَقَتْه الحجارة قعد إلى الأرض، فيأخذون بعضُديه فيقيمونه، فإذا مشى رجموه وهم يضحكون، ولم يكن هنالك من يدفع عنه أذى أولئك السفهاء، سوى مولاه زيد ابن حارثة، رضى الله عنه؛ فقد جعل زيد يقيه بنفسه، ويتلق عنه ما يستطيع أن يتلق من الحجارة، حتى شُج فى رأسه شجاجًا كثيرة.

وهكذا جعل أولئك السفهاء يطاردونه ويتعقبونه، حتى استطاع أن يحتمى منهم بحائط بستان هنالك لرجلين من قريش، فانصرفوا عنه بعد ما أجهدوه وأنهكوه. فجلس، صلى الله عليه وسلم، تحت كَرْمة فى البستان يسترد أنفاسه، وقد بلغ منه الحزن كل مبلغ، واشتد به الأسى على هؤلاء القوم الذين جاء إليهم بالهدى والنور، فكاء جزاؤه منهم هذا اللقاء المنكر، وهذا الوداع المهين.

موقف حرج

وعزّت على رسول الله ﷺ نفسه، وشعر بوخز الهوان يَفْرِى

فؤاده الطاهر، فجلس يتفكر فى أمره، ويستعرض ظروفه وأحواله؛ فبدا له الموقف أشدَّ ما يكون قسوة، وأعظم ما يكون حرجًا، وأحوج ما يكون إلى مدد من العون الإلهى، وقَبَس من النور السماوى، الذى تنكشف به الظلمات، وتنفرج به الكروب.. لقد تنكرت له قريش حتى ضاقت به وضاق بها، وانقطع أمله فى أن تؤمن بالله ورسوله، فجاء يَنشدُ الأمل والنُّصرة فى ثقيف، فكان موقفها منه ومن دعوته أشدَّ وأنكى من موقف قريش. وها هم أولاء يخرجونه من ديارهم أقبح إخراج، ويطردونه أشنع طرد، وها هو ذا طريد شريد، لا يكاد يطمئن على نفسه حتى يؤدى أمانته، ويبلغ رسالته.. لقد أنكرته ثقيف كما أنكرته قريش، وانقطع أمله فى هؤلاء الرحم وفى أولئك العشيرة؛ وإذا كان هؤلاء وأولئك قد أنكروه، وهم رَحِمُه وعشيرته، وأولى الناس به، فهل يطمع فى نُصرة من دونهم من القبائل والعشائر؟

لكن الله الذى كرمه بهذه الرسالة، ووعده عليها النصر والتأييد، لا يمكن أن يخلف وعده؛ فإذا كان الأهل والعشيرة قد جفوه وأنكروه، فإن الله لن يتخلى عنه، وهو وحده القادر على أن يجعل له من هذه الشدة مخرجًا، ومن هذا الضيق فرجًا..!.

الرسول يستغيث بربه

وتحركت نفسه بالأمل، وجاش صدره بالضراعة، واتجه بقلبه إلى الله يبتهل إليه، ويرجو منه الغَوْث والرحمة، ويستعيذ به من خواطر الضعف والفشل، وهواجس اليأس والقنوط، فقام يصلى؛ وكان إذ حَزَبه أمر فزع إلى الصلاة.. فلما انتهى من صلاته، رفع يديه بالدعاء يقول: «اللهم إليك أشكو ضعف قوتى، وقلة حيلتى، وهوانى على الناس، يا أرحم الراحمين..! أنت رب المستضعفين وأنت ربى، إلى من تَكِلُنى؟ إلى بعيد يَتَجَهَّمُنى، أو إلى عدو ملَّكته أمرى..؟ إن لم يكن بك علىّ غضبٌ فلاأبالى، ولكن عافيتك أوسعُ لى.. أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات، وصلَح عليه أمر الدنيا والآخرة، من أن تُنزِل بى غضبَك، أو تُحِلّ علىّ سَخَطك..! لك العُتْبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك!!».

عداس يكرم النبى ويؤمن به

وأثر منظره فى صاحبى البستان – عتبة وشيبة ابنى ربيعة – فتحركت له الرحمة فى قلبيهما، وأشفقا عليه مما أصابه من الإعياء والهوان؛ فأرسلا إليه قِطْفًا من عنب البستان، مع غلام

لهما يقال له : «عَدّاس».. فلما ذهب إليه عدّاس وقدم له القطف، تناوله منه شاكرًا ثم قال : «بسم الله الرحمن الرحيم»! وأخذ يأكل. فدهش لذلك عداس، ونظر إليه قائلاً : «والله إن هذا لَكلام ما يقوله أهل هذه البلدة». فقال له صلى الله عليه وسلم : «فمن أى البلاد أنت»؟ قال عداس : «نصرانى من نِينَوى». فقال صلى الله عليه وسلم : «من قرية الرجل الصالح يونس بن مَتّى؟» فقال عداس : وما يدريك ما يونس بن متى؟ والله لقد خرجت من نينوى وما فيها عشرة يعرفون ابن متى؟» قال صلى الله عليه وسلم : «ذاك أخى، كان نبيًّا وأنا نبى».

فأكب عداس على رسول الله ﷺ يقبل رأسه ويديه ورجليه، فجعل ابنا ربيعة ينظران إليه ويقول أحدهما لصاحبه : «لقد - والله - أفسد علينا غلامنا». فلما جاء عداس قالا له : «ويلك يا عداس! مالك تقبل رأس هذا الرجل ويديه ورجليه»؟ قال عداس : «والله ما فى الأرض شيء خير من هذا! لقد أخبرنى بأمر ما يعلمه إلا نبى». قالا له : «ويحك يا عداس! لا يصرفنّك عن دينك، فإن دينك خير من دينه».. ويقول الرواة : إن عداسًا أسلم وشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وأنه معدود فى صحابه رسول الله، صلى الله عليه وسلم.

الرسول يرجو لأعدائه الهداية

كان ذلك اليوم أشد يوم مر برسول الله، صلى الله عليه وسلم، وكان ما لقى فيه من سادات ثقيف ومن سفهائها، جديرًا بأن يزعزع الجبال الراسخة؛ ولكن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، خرج من هذا الامتحان وهو أشد ما يكون ثقةً بربه عز وجل، وأكثر ما يكون طُمأنينة إلى نصره وتأييده.

على أن هذا الذى لقيه من أهل الجهالة والسفه من قريش ومن ثقيف، لم يترك فى نفسه شيئًا من الضغن لهم، ولا من الحقد عليهم؛ بل ظل يتمنى لهم الهداية، ويرجو أن يمنّ الله عليهم بنعمة الإيمان، أو يجعلها فى ذرياتهم إن لم يكن قدّرها لهم فى أنفسهم.

روى البخارى ومسلم أن عائشة، رضى الله عنها، قالت لرسول الله، صلى الله عليه وسلم: «هل أتى عليك يوم كان أشد عليك من يوم أحد»؟ قال: «لقد لقيت من قومك ما لقيت.. وكان أشد ما لقيت يوم العقبة، إذ عرضْت نفسى على عبد ياليل بن عبد كلال فلم يجبنى إلى ما أردت؛ فانطلقت وأنا مهموم على وجهى، فلم أستفق من الغم إلا وأنا بقرن الثعالب[1]؛ فرفعت رأسى فإذا أنا بسحابة قد أظلتنى، فنظرت

(١) قرن الثعالب: مكان، لعله بين مكة والطائف.

فإذا فيها جبريل عليه السلام، فناداني فقال: إن الله قد سمع قول قومك وما ردوا عليك، وقد بعث الله لك ملك الجبال لتأمره بما شئت. قال صلى الله عليه وسلم: فناداني ملك الجبال، فسلم عليّ ثم قال: يا محمد، إن الله قد سمع قول قومك وما ردّوا عليك؛ وأنا مَلك الجبال، وقد بعثني الله إليك لتأمرني، إن شئت دَمْدَمْت عليهم الجبال، وإن شئت خسفت بهم الأرض. قال النبي صلى الله عليه وسلم: لا، بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم مَن يعبده وحده لا شريك له!».

الجن يستمعون القرآن

انصرف رسول الله ﷺ من الطائف عائدًا إلى مكة؛ فلما وصل في طريقه إلى مكان يسمى «نخلة»، قام من الليل يصلي ويرتل من القرآن ما شاء الله أن يرتل. فمر به جماعة من الجن فاستمعوا إليه، فأعجبهم ما سمعوا من هذا الكلام الذي يهدي إلى الرشد، ويدعو إلى الحق، فآمنوا به وصدقوه، وذهبوا إلى قومهم يذيعون بينهم هذا النبأ، ويدعونهم إلى الإيمان بما جاء به هذا الرسول: ﴿قالوا: يا قومَنا إنا سَمِعْنا كتابًا أُنزل من بعد موسى مصدّقًا لما بين يَديْه، يَهدي إلى الحقّ وإلى طريق مستقيم * يا قومَنا أجيبوا داعي الله وآمنوا به، يغفر لكم من

ذنوبكم ويُجِرْكم من عذاب أليم﴾[1]. ونزل الوحى على رسول الله ﷺ ينبئه بما كان من أمره وأمر هؤلاء الجن الذين آمنوا به وصدقوه، فاستبشر، صلى الله عليه وسلم، بذلك، وأيقن أن طلائع الفرج قد آذنت، وأن بشائر النصر قد واتت.

وأقام رسول الله ﷺ بنخلة ثلاثة أيام، يدبر لنفسه خُطة الدخول على قريش، حتى يأمن أذاهم ويتقى طغيانهم، ولا سيما بعد ما سبقه النبأ إليها بما كان بينه وبين ثقيف.

قال زيد بن حارثة: «كيف تدخل عليهم يا رسول الله وهم أخرجوك؟» ولعل زيدًا، رضى الله عنه، ظن أن رسول الله ﷺ لن يعود إلى قريش، بعد أن أيس من إيمانهم وبعد أن لقى ما لقى منهم لكن رسول الله كان على يقين بنصر الله عز وجل، فقال: «يا زيد، إن الله جاعل لما ترى فرجًا ومخرجًا وإن الله ناصر دينه ومظهر نبيه».

الرسول يعود إلى مكة

وكان لا بد له، صلى الله عليه وسلم، أن يعود إلى مكة، ليعرض دعوته على القبائل التى تحضر موسم الحج. وكان موسم الحج قد أقبل، وكان لا بد له من أحد يُجيره من قريش، حتى

---

(١) سورة الأحقاف آيتا ٣٠ - ٣١.

يستطيع أن يبلغ دعوته إلى القبائل التى حضرت الموسم. فأرسل إلى الأخنس بن شريق، يعرض عليه أن يدخل مكة فى جواره؛ فأجاب معتذرًا بأنه حليف قريش، وحليف قريش لا يُجير على صَمِيمِها. فأرسل، صلى الله عليه وسلم، إلى سُهيل بن عمرو ليجيره؛ فتعلل بأن بنى عامر بن لؤى لا تجير على بنى كعب بن لؤى. . فأرسل، صلى الله عليه وسلم، إلى المُطعم بن عَدىّ؛ فأجابه المعطم إلى ما أراد، وبعث إليه أن يدخل مكة فى جواره؛ فذهب رسول الله ﷺ فبات عنده تلك الليلة. فلما أصبح خرج صلى الله عليه وسلم وخرج معه المطعم هو وبَنُوه الستّة، وقد تقلدوا السيوف جميعًا؛ فدخلوا المسجد وقالوا لرسول الله : «طُفْ». واحتبوا بحمائل سيوفهم فى المطاف. فأقبل أبو سفيان إلى المطعم فقال : «أمُجير أم تابع»؟ قال المطعم : «لا بل مجير». قال أبو سفيان : «إذن لا تُخفَر»[1] وجلس معه حتى قضى رسول الله ﷺ طوافه. فلما قضى طوافه وانصرف، انصرف معه المطعم وبنوه يحيطون به. وذهب أبو سفيان إلى مجلسه فى نَدِى القوم، يخبرهم بما كان من جوار المطعم لمحمد. واضطُرت قريش أن تُمضى جوار المطعم بن عدى، فلم تتعرّض لرسول الله ﷺ بسوء لكنها جعلت تفكر وتدبر، منذ عرفت أن

(١) لا تخفر : لا ينقض عهدك ولا يعتدى أحد على من اجرته وتصديت لحمايته.

رسول الله ﷺ يريد أن يعـرض دعـوته على قبائل العـــرب فى موسم الحج، وجعل زعماؤهـــا يتبـــادلون الـــرأى فيما يجـــب أن يفعلوا، حتى يحولوا بين قبائل العرب وبين هذه الدعوة الخطيرة.

عرض الدعوة على القبائل

أسواق العرب فى موسم الحج

عاد رسول الله ﷺ إلى مكة بعد رحلته إلى الطائف؛ وحضر موسم الحج، وأقبلت قبائل العرب على البيت الحرام من كل فج، تؤدى مناسك الحج، وتقدم للأصنام ما عليها من نذور وقرابين.

وكان من عادة العرب كلما حضروا إلى مكة فى موسم الحج، أن ينتهزوا فرصة الأشهر الحرم فى ذلك الموسم، فيعرضوا بضائعهم فى أسواق مكة. وكان أشهر هذه الأسواق ثلاثة: عُكاظ، ومجنَّة، وذو المجاز. فأما «عُكاظ» فهى سوق بين مكة والطائف، على بعد يوم من الطائف وثلاثة أيام من مكة؛ وأما «مجنة» فهى سوق بأسفل مكة، على نحو اثنى عشر ميلاً منها؛ أما «ذو المجاز» فهى سوق على يمين الموقف من عَرَفة، على بعد فرسخ[1] منها، وهى أقرب الأسواق الثلاثة مكانًا إلى مكة.

---

(١) الفرسخ ثلاثة أميال. والميل ١٧٦٠ ياردة: أى نحو كيلو متر ونصف.

فكان العرب يبدءون بعكاظ، فيحضرون إليها مع هلال ذى القعدة، فيقيمون بها عشرين يومًا، ثم ينصرفون إلى مجنة فيقمون بها عشرة أيام. فإذا رأوا هلال ذى الحجة انصرفوا إلى ذى المجاز، فأقاموا بها ثمانى ليال. ثم يتروَّوْن من مائها فى اليوم الثامن، ويخرجون إلى عرفة ليؤدوا مناسك الحج.

وكان رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قد عقد العزم على أن يَغْشى هذه الأسواق، ليَعرض نفسه على القبائل التى حضرت الموسم، يدعوهم إلى الله عز وجل، ويخبرهم أنه نبى مرسل، ويسألهم أن يصدّقوه ويمنعوه حتى يبين عن الله ما بعثه به.

قريش تستعد لتشويه الدعوة

وكانت قريش قد أعدت عُدتها، منذ عرفت ما عزم عليه رسول الله ﷺ من عرض دعوته على القبائل، وأجمعت رأيها على أن تشوِّه هذه الدعوة عند قبائل العرب، وأن تحذرها من سحر محمد، وما ينجم عنه من الفُرْقة والخلاف بين الأهل والعشيرة. وقد أعدت لذلك مَثلا ما أصابها هى من فرقة وشقاق بسبب دعوته.

روى ابن إسحاق: «أن الوليد بن المغيرة اجتمع إليه نفر من قريش، وكان ذا سنٍّ فيهم، وقد حضر الموسم، فقال لهم:

يا معشر قريش، إنه قد حضر هذا الموسمُ، وإن وفود العرب ستقدَم عليكم فيه، وقد سمعوا بأمر صاحبكم، فأجمعوا فيه رأيًا واحدًا، ولا تختلفوا فيكذّب بعضكم بعضًا، ويردّ بعضكم قول بعض. قالوا: فأنت يا أبا عبد شمس فقل، وأقم لنا رأيًا نقول به. قال: بل أنتم فقلوا أسمع. قالوا: نقول: كاهن.. قال: لا والله ما هو بكاهن؛ ولقد رأينا الكهان فما هو بزَمْزمة الكاهن ولا سَجْعه. قالوا: فنقول: مجنون.. قال: ما هو بمجنون؛ لقد رأينا الجنون وعرفناه، فما هو بخَنْقه ولا تخالجه ولا وَسْوَسته. قالوا: فنقول: شاعر.. قال: ما هو بشاعر؛ فقد عرفنا الشعر كله رَجَزَه وهزجه وقَريضه ومقبوضه ومبسوطه، فما هو بالشعر. قالوا: فنقول: ساحر.. قال: والله إن لقوله لحلاوة، وإن أصله لَعَذْق، إن فرعه لجناة[1]؛ وما أنتم بقائلين من هذا شيئًا إلا عرف أنه باطل. وإن أقرب القول فيه لأن تقولوا: ساحر.. جاء بقول هو سحر؛ يفرق به بين المرء وأبيه، وبين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجه، وبين المرء وعشيرته..! فتفرقوا عنه بذلك.. فجعلوا يجلسون بسُبُل الناس حين قدموا الموسم؛ لا يمر بهم أحد إلا حذّروه إياه، وذكروا له أمره».

* * *

(١) قال السهيلي: هو استعارة من النخلة، التي ثبت أصلها وقوى، وطاب فرعها إذا جنى والنخلة هي العذق.

قريش تحذر من سحر محمد

وجعلت قريش تتابع رسول الله ﷺ أينما ذهب، فكلما ذهب إلى قليلة من القبائل يعرض عليها دعوته، وقف عليه رجل من قريش يحذرها من سحره ومكره، ويتهمه عندها بالجنون تارة، وبالكذب تارة، وبالسحر تارة أخرى. وكان لقريش مكانتُها في نفوس العرب، فكان لقولهم أثرُه في إعراضهم عن رسول الله ﷺ وعدم استجابتهم لما يدعو إليه من الحق الواضح والنور المبين.

روى ابن إسحاق عن ربيعة بن عباد الدؤلي أنه قال: «إني لَغلام شابٌّ مع أبي بِمنى، ورسول الله صلى الله عليه وسلم، يقف على منازل القبائل من العرب، فيقول: «يا بني فلان، إني رسول الله إليكم، آمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا، وأن تخلعوا ما تعبدون من دونه من هذه الأنداد، وأن تؤمنوا بي وتصدقوا بي، وتمنعوني حتى أبلغ عن الله ما بعثني به». (قال): وخلفه رجل أحولُ وَضِيء، له غَديرتان وعليه حلة عَدَنية. فإذا فرغ رسول الله ﷺ من قوله وما دعا إليه قال ذلك الرجل: يا بني فلان إن هذا إنما يدعوكم إلى أن تسلُخوا اللات والعُزَّى من أعناقكم، وحلفاءكم من الجن من بني مالك

ابن أقْيش، إلى ما جاء به من البِدْعة والضلالة؛ فلا تطيعوه ولا تسمعوا له.. (قال): فقلت لأبى: يا أبت، من هذا الرجل الذى يتبعه ويرد عليه ما يقول؟ قال: هذا عمه عبد العزى بن عبد المطلب: أبو لهب».

وروى البيهقى عن رجل من كنانة قال: «رأيت رسول الله، صلى الله عليه وسلم، بسوق ذى المجاز وهو يقول: «يا أيها الناس قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا».. وإذا رجل خَلْفه يَسْفى عليه التراب - فإذا هو أبو جهل - وهو يقول: أيها الناس لا يغرنكم هذا عن دينكم، فإنما يريد أن تتركوا عبادة اللات والعزى!».

القبائل تستجيب لسعى قريش

ولكن ذلك لم يمنع رسول الله ﷺ أن يأتى القبائل فى منازلها، يعرض عليها دعوته، ويسألها نصره وحمايته حتى يبلغ رسالة ربه؛ غير مبال بما يلقاه من مناوأة قريش لدعوته، وسعيها لدى القبائل فى تشويهها، وتمويه الحق بالباطل فى أمرها؛ موقنًا أن الغلبة للحق وإن طال الزمن، وأن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسراً.

وقد تأثرت القبائل بسعى قريش أيما تأثر؛ فما من قبيلة

إلا وأعرضت عن رسـول الله ﷺ وردت عليـه دعـوته فى ذلك الموسم، وإن كانت طريقة الرد تختلف بـاختلاف القبـائل؛ فمـن القبائل من كان يغلظ له الرد، ومنها من كان يساومه فى الثمن، ومنها من كان يسخر منه ويستهـزئ بـدعوته، ومنهـا مـن كان يَسْتأنى بالرد حتى يفكر فى الأمر وينظر فى العواقب.

روى ابن الأثير وابن إسحاق وغـيرهما مـن أصـحاب السـير: « أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أتى كنـدة فى منـازلهم، فدعاهم إلى الله، عز وجل، وعـرض عليهـم نفسـه، فـأبوا عليه.. وأتى بنى كلـب فى منـازلهم، فـدعاهم إلى الله وعـرض عليهم نفسه، فأبوا عليه.. وأتى بنى حنيفة فى منازلهم، فدعاهم إلى الله وعرض عليهم نفسه، فلم يَكُ أحد من العرب أقبح ردًّا عليه منهم.. وأتى بنى عـامر بـن صَـعْصَعة، فـدعاهم إلى الله وعرض عليهم نفسه، فقالوا له: أرأيـت إن نحـن بـايعناك على أمرك، ثم أظهرك الله على من يخالفك، أيكون لنـا الأمـر مـن بعدك؟ قال: « الأمر لله يضعه حيث يشاء ». فقالوا: أفنهـدِف نحورنا للعرب دونَك[1]، فـإذا أظهـرك الله كان الأمـر لغـيرنا؟ لا حاجة لنا بك. فأبوا عليه ».

---

(١) نعرض أنفسنا للقتل من أجلك.

صورة من صور العرض

وذكر ابن كثير حديثًا مطولاً، رواه أبو نعيم والحاكم والبيهقي عن علي بن أبي طالب، قال: «لما أمر الله رسوله أن يعرض نفسه على قبائل العرب، خرج - وأنا معه وأبو بكر - إلى منى، حتى دفعنا إلى مجلس من مجالس العرب. فتقدم أبو بكر فسلم - وكان أبو بكر مقدَّمًا في كل خير، وكان رجلاً نسابة[1] - فقال: ممن القوم؟ فقالوا: من ربيعة.. وذكر عليّ ما كان بين أبي بكر وبين القوم من حوار طويل. ثم قال: ثم انتهينا إلى مجلس عليه السكينة والوَقار، وإذا مشايخُ لهم أقدارٌ وهيئات. فتقدم أبو بكر فسلم ثم قال: ممن القوم؟ فقالوا: من بني شيبان بن ثعلبة. فالتفت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: بأبي أنت وأمي يا رسول الله! هؤلاء غُرَرٌ من قومهم. وكان في القوم مَفْروق بن عمرو، وهانئ بن قبيصة، والمُثنى بن حارثة، والنعمان بن شَرِيْك. وكان مفروق بن عمرو قد غلبهم جمالاً ولسانًا، وكانت له غديرتان من شعر تسقطان على صدره، وكان أدنى القوم مجلسًا من أبي بكر رضي الله عنه. فقال له أبو بكر: كيف العدد فيكم، ؟ فقال مفروق: إنا

---

(١) نسابة: عليما بأنساب العرب.

لَنزيدُ على الألف، ولن تُغلب الألفُ من قلة[1]. فقال له أبو بكر: فكيف المَنعة فيكم؟ قالَ مفروق: علينا الجهد، ولكل قوم جَدّ[2]. فقال له أبو بكر رضى الله عنه: فكيف الحرب بينكم وبين عدوكم؟ فقال مفروق: إنا لأشدُّ ما نكون غضبًا حين نلقى، وأشد ما نكون لقاءً حين نغضب، وإنا لنؤثر الجياد على الأولاد، والسلاح على اللقاح[3]؛ والنصر من عند الله، يُديلنا مرة، ويديل علينا مرة.. لعلك أخو قريش؟ فقال أبو بكر: إن كان بلغكم أنه رسول الله فها هو هذا. فقال مفروق: قد بلغنا أنه يذكر ذلك. ثم التفت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فجلس؛ وقام أبو بكر يُظلُّه بثوبه. قال مفروق: فإلام تدعو يا أخا قريش؟ فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «أدعوكم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأنى رسول الله، وأن تؤْوُونى وتنصرونى حتى أؤدى عن الله الذى أمرنى به. فإن قريشًا قد تظاهرت على أمر الله، وكذبت رسوله، واستغنت بالباطل عن الحق. والله هو الغنى الحميد». قال له: وإلام تدعو أيضًا يا أخا قريش؟ فتلا رسول

---

(١) يعنى أن الألف عدد ليس بالقليل حتى يغلب.

(٢) هذه العبارة يفسرها ما بعدها.

(٣) الجياد: الخيل. واللقاح: الإبل. وهو يعنى أنهم أهل حرب وقتال وأن أسباب القوة هى أهم ما يعنيهم.

الله، صلى الله عليه وسلم : ﴿قلْ : تَعالَوا أتْلُ ما حرَّم ربُّكم عليكم ألا تُشركوا به شيئًا، وبالوالدين إحسانًا، ولا تقتُلوا أولادكم من إمْلاق نحن نرزُقكم وإيّاهم، ولا تَقْربوا الفواحش، ما ظهر منا وما بَطن، ولا تقتلوا النَّفْس التى حرَّم الله إلا بالحق؛ ذَلكم وَصَّاكم به لعلكم تَعْقِلون * ولا تقرَبوا مالَ اليتيم إلا بالتى هى أحسن حتى يَبْلُغ أشُدَّهُ، وأوفوا الكيل والميزان بالقِسطِ - لا نكلف نفسًا إلا وُسْعَها وإذا قلتم فاعْدلوا ولو كان ذا قُرْبَى وبعهد الله أوفوا ذلك وصّاكم به لعلكم تذكرون * وأن هذا صراطى مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السُّبُل فَتَفَرّق بكم عن سبيله؛ ذلكم وصاكم به لَعَلَّكُم تَتقون﴾[1]. فقال له مفروق : وإلام تدعو أيضًا يا أخا قريش فوالله ما هذا من كلام أهل الأرض، ولوْ كان من كلامهم لعرفناه. فتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم : ﴿إن الله يأْمرُ بالعدلِ والإحسانِ وإيتاءِ ذى القُرْبَى، ويَنْهى عن الفحشاءِ والمُنْكرِ والبَغْى؛ يعظُكم لعلَّكم تذَكرون﴾[2]. فقال له مفروق : دعوت - والله - يا أخا قريش إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال؛ ولقد أفك قوم كذبوك وظاهروا عليك.

(١) سورة الأنعام الآيات ١٥١ - ١٥٣.
(٢) سورة النحل الآية ٩٠.

وكأنه أحب أن يشاركه فى الكلام هانئ بن قَبِيصة، فقال: وهذا هانئ بن قبيصة، شيخنا وصاحب ديننا، فقال هانئ: قد سمعت مقالتك يا أخا قريش وصدّقت قولك، وإنى أرى أن تركنا ديننا واتباعنا إياك على دينك، لمجلس جلسته إلينا ليس له أول ولا آخر، لَزَلَّةٌ فى الرأى، وقلةُ نظر فى العواقب؛ وإنما تكون الزلة مع العَجلة. وإن من ورائنا قومًا نكره أن نَعقد عليهم عقدًا.. ولكن ترجع ونرجع، وتنظر وننظر.

وكأنه أحب أن يشركه فى الكلام المثنى بن حارثة فقال: وهذا المثنى بن حارثة، شيخنا وصاحب حربنا. فقال المثنى: قد سمعت مقالتك واستحسنت قولك يا أخا قريش، وأعجبنى ما تكلمت به؛ والجواب هو جواب هانئ بن قبيصة. وإن أحببت أن نُؤْويك وننصرك مما يلى سائر العرب دون أنهار كسرى، فعلنا؛ فإننا نزلنا على عهد أخذه علينا كِسْرى، ألا نُحدث حَدثًا ولا نؤوى محدثًا[1]؛ وإنى أرى أن هذا الأمر الذى تدعونا إليه هو ما تكرهه الملوك. فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «ما أسأتم إذ أفصحتم بالصدق إنه لا يقوم بدين الله إلا من حاطه من جميع جوانبه».

(١) المحدث: هو الذى يحاول تغيير الوضع القائم. والمعنى أنهم لا يريدون أن يخرجوا على طاعة كسرى - ملك الفرس - ولا أن يعاونوا من يخرج على طاعته، لما بينهم وبينه من حلف.

كان الرسول ينشد المنعة والحماية حتى يبلغ رسالة ربه

وكان أهم ما يعنى رسول الله ﷺ أن يجد المَنعة والقوة عند القوم الذين يدعوهم إلى دينه، وأن يجد لديهم الرغبة الخالصة فى أن ينصروه ويمنعوه ممن خالفه فقد كان يعلم أن العرب جميعًا يحسبون حساب قريش، وأنه لا ينهض بهذه الدعوة إلا من آمن بها أصدق الإيمان، وباع نفسه لله فى سبيلها عن رضًا وطواعية. فكان كلما أقبل على قوم سألهم عن نسبهم، وعن عددهم، وعن مَنعتهم؛ ثم عرض عليهم نفسه ودعاهم إلى الله، ورغبهم فيما جاءهم به من الخير وخيرهم بعد ذلك فيما يريدون لأنفسهم. حتى إذا ما وجد منهم تعللاً أو اعتذارًا، أو رأى فيهم طمعًا أو مساومة، تركهم وانصرف عنهم إلى غيرهم.

قال موسى بن عُقْبة عن الزُّهْرى: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم، فى تلك السنين، يعرض نفسه على قبائل العرب فى كل موسم، ويكلم كل شريف قوم؛ لا يسألهم مع ذلك إلا أن يُؤْووه ويمنعوه، ويقول: «لا أكره أحدًا منكم على شىء؛ من رضى منكم بالذى أدعو إليه فذلك، ومن كره لم أكرهه. إنما أريد أن تُحرِزونى فيما يراد لى من القتل، حتى أبلغ رسالة ربى، وحتى يقضى الله لى ولمن صحبنى بما شاء» فلم يقبله

أحد منهم؛ وما يأتى أحدًا من تلك القبائل إلا قال: قوم الرجل أعلم به؛ أترون أن رجلًا يصلحنا وقد أفسد قومه ولفَظُوه؟»

كان تأثير قريش على العرب شديدًا

والحق أن أكثر القبائل كانت تجامل قريشًا، وتتقى أن تقف منها موقف العداء، لما كان لقريش من المكانة فى نفوس العرب؛ فكان إعراض القبائل عن رسول الله ﷺ راجعًا فى الأغلب إلى هذا السبب، أكثر مما هو راجع إلى عدم تصديق الرسول فيما يدعوهم إليه. ولقد بذلت قريش غاية جهدها فى محاربة الرسول وتشويه دعوته، حتى أيقنت العرب أن صاحب هذه الدعوة هو أعدى عدوها، وأن كل من يتابعه أو يؤازره أو يمنعه، إنما يناصره على قريش ويبارزها جهرًا بالعداوة.

ولكنه لفت أنظارهم إلى الدعوة

على أن قريشًا برغم ما بذلت من الجهد فى تشويه دعوة الرسول ﷺ فى تحذير الناس منه، لم تستطع أن تحول بين الدعوة وبين الظهور والانتشار؛ فقد صَدرت العرب من ذلك الموسم بأمر رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فانتشر ذكره فى بلاد العرب كلها. وكانت مبالغة قريش فى التحذير منه، سببًا

فى لفت الأنظار إليه، وإلى ما يدعو إليه من هذا الدين الذى تحذر منه قريش.

صورة من صور التأثير

ونريد أن نختم هذا الفصل بقصة «الطفَيْل بن عمرو الدَّوْسى» فإن فيها دليلاً على شدة ما كان لقريش من التأثير على عقول الناس، كما أن فيها دليلاً على أن التأثير على شدته، لم يمنع أحرار العقول من صدق النظر فى أمر هذه الدعوة، دون أن يأبَهوا لما قيل وما يقال عنها.

فقد كان الطفيل بن عمرو سيدًا مطاعًا فى قبيلة دَوْس، وكان قد قَدِم مكةَ حاجًّا. فاجتمع به أشراف قريش وحذروه من رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ونَهوه أن يجتمع به أو يسمع كَلامه.. قال الطفيل: «فوالله ما زالوا بى حتى أجمعت لا أسمع منه شيئًا ولا أكلمه، حتى حشوت أذنى حين غدوت إلى المسجد كُرْسُفا[1]، فَرَقًا[2] من أن يبلغنى شىء من قوله وأنا لا أريد أن أسمعه. (قال): فغدوْت إلى المسجد، فإذا رسول الله ﷺ قائم يصلى عند الكعبة، فقمت منه قريبًا؛ فأبى الله إلا أن يُسمعنى بعض قوله (قال): فسمعت كلامًا حسنًا. فقلت: واثُكْل

(١) الكرسف: القطن.
(٢) فرقًا: خوفًا.

أمى ! والله إنى لَرجلٌ لبيب شاعر، ما يخفى علىّ الحسن من القبيح؛ فما يمنعنى أن أسمع من هذا الرجل ما يقول، فإن كان الذى يأتى به حسنًا قبلته، وإن كان قبيحًا تركته. (قال) : فمكثت حتى إذا انصرف رسول الله ﷺ إلى بيته دخلت عليه، فقلت : يا محمد، إن قومك قالوا لى كذا وكذا - لما كانوا يقولون - فوالله ما برحوا يخوفوننى أمرك، حتى سددت أذنىّ بكرْسف لئلا أسمع قولك، ثم أبى الله إلا أن يسمعنى قولك، فسمعت قولاً حسنًا. فاعرض علىّ أمرك. (قال) : فعرض علىَّ، صلى الله عليه وسلم، الإسلام، وتلا علىّ القرآن. فلا والله ما سمعت قولاً قط أحسن منه، ولا أمرًا أعدل منه.. ! فأسلمت وشهدت شهادة الحق».

وانصرف الطفيل إلى قومه فجعل يدعوهم إلى الإسلام، فاعتلُّوا عليه حينًا. ولكنه لم يزل بهم حتى أسلم منهم نحو ثمانين بيتًا؛ فقدم بهم على رسول الله ﷺ وهو بالمدينة فى غزوة خَيْبَر، فأسهم مع المسلمين فى الغنائم.

ومهما يكن من شيء، فإن كيد قريش لدعوة الرسول ﷺ لم يكن شرًّا على الدعوة، بل كان شرًّا يحمل الخير فى ثناياه، فقد ذاعت بسببه أنباؤها فى جميع بلاد العرب. وكما كان هذا الكيد سببًا فى إيمان الأحرار من أمثال الطفيل الدوسى، كان سببًا فى

إيمان الأنصار من الأوْس والخزْرَج، وكان سببًا فى انتقال الـدعوة إلى المدينة، ثم فى انتشارها فى بلاد العرب كلهـا، ثم فيما شـاء الله بعد ذلك مـن أقـطار الأرض.. ﴿والله غـالب على أمـره ولكنَّ أكثرَ الناسِ لا يعلمون﴾.

بيعة الأنصار

اختلاف الطبيعة بين مكة والمدينة

تختلف الطبيعة بين مكة والمدينة اختلافًا كبيرًا فى الموقع والمناخ، وفى الخِصب والجدب، وفى الرطوبة والجفاف، وفى سهولة الأرض وحُزونتها، وانبساطها وانقباضها وصلابتها ولينها؛ وفى حرارة الجو وبرودته، وقلة الأمطار وكثرتها، وعُذوبة المياه وملوحتها؛ وفى كثير من مشاهد الطبيعة وظواهرها. وتختلف المدينتان كذلك فى طبيعة السكان وعناصرهم، وأعمالهم وأخلاقهم؛ وإن كان الجميع فى كِلْتَيهما يشتركون فى الكيان العام للجنس العربى، ويصطبغون بالصبغة العربية العامة، التى تفرضها طبيعة البيئة وتقاليدها.

فالمدينة - وهى يَثْرِب - تقع فى واد منبسط فسيح، تحوطه الحدائق والبساتين، وتملؤه الأشجار والظلال، وتكسوه الخضرة والنضارة، وتكثر فيه العيون والينابيع، وتجرى خلاله المياه العذبة؛ فهى مدينة خصبة، وبلدة غنية بالخير والثمرات. على أنها مع ذلك معتدلة الجو طيبة الهواء، وجوُّها أقرب ما يكون

شبيهًا بجو القاهرة فى مصر، وإن كانت تقع على خط العرض الذى تقع عليه مدينة الأقصر - وهو عرض ٤٤ درجة و١٥ دقيقة من شمال خط الاستواء - لأنها ترتفع عن سطح البحر بنحو ٦٢٠ مترًا.

أما مكة فإنها تقع فى واد ضيق مقفر، تحوطه الجبال من جميع نواحيه، وتحصره حصرًا شديدًا، حتى يكاد يتصل بعضها ببعض فى الشرق والغرب والجنوب؛ وأرضها صخرية صُلبة، لا زرع فيها ولا شجر، إلا ما ينبت هنا وهناك متفرقًا فيما حواليها من أشجار البادية، كالضال والسَّمُر والأَرَاك ونحو ذلك؛ وماؤها شحيح كثير الملوحة يندُر أن يكون عذبًا، وأطيب مائها ماء زمزم، ولكنه مع ذلك لا يمكن الإدمان على شربه. ومن أجل أن الماء فى مكة قليل نادر، كانت سقاية الحاج من أهم الأعمال التى يقوم بها أشراف مكة، وكانت وظيفة السقاية من أهم وظائف السِّدانة فى البيت الحرام؛ حتى ظن أهلها أنها تَعدِل الإيمان بالله، والجهاد فى سبيله بالأموال والأنفس، وحتى خطّأهم الله سبحانه فى تفكيرهم هذا فقال: ﴿أجَعلتم سِقاية الحاجّ وعِمارَة المسجد الحرام، كَمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد فى سبيلِ الله لا يَسْتَوُون عند الله، والله لا يَهدِى القومَ الظالمين * الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم

وأنفسهِم أعظمُ درَجةً عند الله، وأولئِك هم الفائزون * يبشرهم ربهم برحمةٍ منه ورِضوان وجناتٍ لهم فيها نعيمٌ مقيم * خالدين فيها أبدًا، إن الله عنده أجرٌ عظيم﴾[1]. وتنحدر مكة إلى الجنوب من يثرب بنحو ٢٣ درجة، فتقع على عرض ٢١ درجة و٣٨ دقيقة، ولا ترتفع عن سطح البحر بأكثر من ٣٣٠ مترًا. ومن أجل ذلك كان جوها شديد الحرارة، وكان مطرها قليلا نادرًا، وكان كثيرٌ من مظاهر الطبيعة فيها على عكس ما هى عليه فى المدينة.

وقد ترك هذا الاختلاف الواضح بين الطبيعتين أثره الواضح أيضًا فى اختلاف طباع الناس فى كلتا المدينتين؛ فقد عُرف أهل مكة بالشدة والصلابة فى طبَاعهم، وبالقسوة والجفاف فى معاملاتهم؛ فى حين عرف أهل المدينة بلين الجانب، ودماثة الخلق، وحسن المعاملة.

سكان مكة عرب وسكان المدينة خليط من العرب واليهود

كذلك كان من مظاهر هذا الاختلاف اختلاف عناصر السكان فى كلا البلدين؛ فأهل مكة كلهم عرب خُلَّص من

(١) سورة التوبة الآيات ١٩ - ٢٢.

قبيلة قريش، ليس بينهم غريب أو أجنبي عنهم، سوى عدد قليل جدًّا من الأعاجم النازحين إلى مكة، لأغراض تجارية أو صناعية أو نحو ذلك، بعضهم من الروم، وبعضهم من القبط، وبعضهم من الأحباش، وبعضهم من عناصر أعجمية أخرى.

أما أهل المدينة فكانوا عنصرين متميزين؛ عنصر يهودى يتكون من ثلاث قبائل: بنى النَّضير، وبنى قُرَيْظة، وبنى قَيْنُقَاع؛ وعنصر عربى يتألف من قبيلتين: هما الأوس والخَزْرَج. ويقول الرواة: إن الأوس والخزرج كانا أخوين شقيقين، وكان مسكنهما بلاد اليمن؛ وعلى تطاول الزمن تفرع الأَخوان إلى فروع، وتفرعت فروعهما إلى فروع، وتكونت من هؤلاء وهؤلاء بطون كثيرة؛ ثم نزح الجميع إلى يثرب بعد سيل العَرِم، وهو السيل الذى أصاب بلاد اليمن فى قديم الزمان، فهدّم سدودها، وخرّب ديارها، وطمس أراضيها، وفرق أهلها شيعًا فى نواحى الأرض.

كان اختلاف العناصر فى المدينة سببًا فى تنازع أهلها

وكان اليهود هم أهل المدينة فى ذلك الحين. فلما وفَد الأوس والخزرج على المدينة عاشوا تحت سلطان اليهود، يَفْلَحون لهم الأرض، ويأبُرُون النخل، ويعملون لهم عمل الأجراء؛

وظلوا على ذلك حينًا من الدهر، حتى هجم المسيحيون من أهل الشام على المدينة ذات عام، ينتقمون من اليهود لِمَا فعلوا بالسيد المسيح، فقتلوا عددًا كبيرًا منهم، ومكنوا للأوس والخزرج بالمدينة؛ فاشتدت بذلك شوكة العرب، ونازعوا اليهود سلطانهم وسيادتهم؛ فبدأ بذلك عهد طويل من النزاع بين اليهود وبين الأوس والخزرج.

ورأى اليهود أن هؤلاء العرب يزاحمونهم فى ديارهم، وينازعونهم مُلكهم وسيادتهم، وأنهم على الأيام تشتد شوكتهم ويزداد سلطانهم؛ فلجأوا إلى الحيلة للتفريق والوقيعة بينهم، وجعلوا يدُسُّون بين الأوس والخزرج، ويستثيرون فيما بينهم أسباب العداوة، حتى تم لهم ما أرادوا من ذلك، وحل الخصام محل الوئام، وحلت البغضاء محل المودة، واستحكمت العداوة بين الحيَّين، فقامت بينهما حروب طاحنة، كان لها فى حياتهم تاريخ طويل، وكانت لهم فى ذلك أيام مشهورة، ووقائع مذكورة، يتحدث الرواة بشناعة ما كان فيها من فعال؛ حتى كان آخرَ هذه الأيام يوم «بُعَاث»، قبل الهجرة بنحو خمس سنين. وكان يومًا عبوسًا، دارت الدائرة فى آخره على الخزرج، فأراد الأوس أن يُبيدوهم عن آخرهم، وأن يقتلوهم حرقًا فى ديارهم، لولا أن بعض زعمائهم حال بينهم وبين ما يريدون وقال لهم: «إنهم

إخوانكم على كل حال، وإن جوارهم خير من جوار الثعالب » - يعنى اليهود.

وقد شعرت الأوس والخزرج جميعًا بعد هذا اليوم بسوء ما يصنع بعضهم ببعض، وأدركوا أن المغلوب والغالب من كِليْهما خاسر فى هذه الخصومة، وأن الكاسب فيها وحده هم اليهود أعداؤهم؛ فسعى العقلاء منهم لإصلاح ذات البين، وفكروا فى أن يُنَصِّبوا عليهم زعيمًا واحدًا منهم، يَنْضَوون كلهم تحت لوائه، ويكونون يدًا واحدة على أعدائهم اليهود، واختاروا لذلك رجلا من الخزرج، وهمُّوا أن يُنَصِّبوه ملكًا عليهم؛ ولكن الله أراد بهم خيرًا مما أرادوا بأنفسهم، فهداهم إلى دينه القيم، وجعلهم أنصارًا لرسوله محمد، صلى الله عليه وسلم.

على أن فساد ذات البين فى يثرب لم يكن مقصورًا على العرب وحدهم، بل كان كذلك بين اليهود بعضهم وبعض، فكثيرًا ما كانت الحرب تَنْشَب بين بنى النضير وبنى قريظة، وبين بنى قريظة وبنى قينقاع، مع أن هذا محرم عليهم فى شريعتهم. وقد عيَّرهم الله بذلك فى القرآن الكريم، حيث يقول سبحانه: ﴿وإذ أخذنا ميثاقَكم لا تَسْفِكون دماءكم، ولا تُخرجونَ أنفسَكم من ديارِكم، ثم أقرَرْتم وأنتم تَشهدون * ثم أنتم هؤُلاءِ تَقتُلون أنفسكم وتُخرجون فريقًا منكم من ديارهم، تَظَاهرون عليهم

بالإثم والعُدوان، وإنْ يأتُوكم أُسارَى تُفَادُوهم وهو مُحَرَّم عليكم إخراجهُم؛ أفتُؤْمنُونَ ببعضِ الكتاب وتكفُرون ببعض؟ فما جزاءُ مَنْ يفعلُ ذلك منكم إلا خِزْىٌ فى الحياةِ الدنيا ويومَ القيامةِ يُرَدُّون إلى أشدّ العذاب وما الله بغافلٍ عمّا تعملون﴾[1].

ويقول المفسرون: إن بعض اليهود كان يحالف الأوس وبعضهم كان يحالف الخزرج، ثم يتحاربون، فيقتل اليهودى أخاه اليهودى، مخالفًا بذلك حكم التوراة. فإذا وضعت الحرب أوزارها، جعلوا يفتدون إخوانهم الأسرى بالمال، نزولا على حكم التوراة أيضًا. فهذا معنى قوله تعالى لهم: ﴿أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض﴾.

وهكذا كانت يثربُ مسرحًا للنزاع الدائم والتنافس المستمر، بين اليهود والعرب، وبين العرب أنفسهم، وبين اليهود أنفسهم كذلك، وكان كل فريق يتربص بعدوه الدوائر، ويتحين له الفرص، ويحاول أن يهلكه ولو استعان عليه بعدوه.

كان هذا النزاع سببًا فى تهيئة نفوس العرب للإسلام

وكان اليهود أهل كتاب وعلم، وكان الأوس والخزرج أميين لا يقرءون ولا يكتبون؛ وكانوا كذلك أهل شِرْك وأوثان، يعبدون

(١) سورة البقرة آيتا ٨٤، ٨٥.

الأصنام كما يعبدها سائر العرب. وكان اليهود يعيّرونهم بذلك ويحقرونهم، ويعيبون عليهم جهلهم وغباوتهم، ويتطاولون عليهم بعلمهم وكتابهم؛ وكلما رأوا منهم تمردًا قالوا لهم: «إن نبيًّا سيُبعَث الآن قد أظَلَّ زمانُه، نتّبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرَم». يهددونهم بذلك ويتوعدونهم. من أجل ذلك كان الأوس والخزرج يترقبون ظهور هذا النبي، ويتمنَّوْن لو سبقوا اليهود إليه، فاتبعوه وآمنوا به، واستنصروا به عليهم. كذلك كان تعيير اليهود للعرب بأصنامهم قد جعل كثيرًا من عقلائهم يتبرمون بهذا الدين الذى يدينون به، وبهذه الحجارة التى يعبدونها، ويتمنون لو كان لهم دين كدين اليهود وكتاب ككتابهم، أو كان لهم رسول يرشدهم إلى الحق ويهديهم إلى الصراط المستقيم. وهكذا كانت نفوس العرب فى يثرب قد تهيأت لقبول دعوة الإسلام، واستشرفت لرؤية رسوله محمد، صلى الله عليه وسلم.

الأنصار يلاقون النبى فى موسم الحج فيقبلون دعوته

فلما كان هذا الموسم من مواسم الحج، خرج جماعة من الخزرج إلى مكة، فسمعوا رسول الله ﷺ يَعرض دعوته على القبائل، ورأوا أمارات الصدق بادية عليه، فقال بعضهم لبعض: «والله إنه لَهو النبيُّ الذى تَوَعَّدكم به يهود؛ فلا يسبقُنَّكم إليه». لما كاد رسول الله يكلمهم ويعرض عليهم

دينه، حتى آمنوا به وصدّقوه، ورجَوْا أن يصلح الله به ذات بينهم، وقالوا له: «إنا تركنا قومنا ولا قومَ بينهم من العداوة والشر ما بينَهم؛ فعسى أن يجمعهم الله بك. وسنَقدَمُ عليهم فندعوهم إلى أمرك، ونعرض عليهم الذى أجبناك إليه من هذا الدين؛ فإن يَجْمَعْهم الله عليك، فلا رجلَ أعزُّ منك». . وواعدوه الموسمَ من العام المقبل، ثم انصرفوا راجعين إلى بلدهم وقد آمنوا وصدقوا. فلما قدموا المدينة، ذكروا لهم رسول الله ﷺ، ودعوْهم إلى الإسلام حتى فشا فيهم، فلم تبق دارٌ من دور الأنصار إلا وفيها ذكرٌ من رسول الله، صلى الله عليه وسلم.

فلما كان العام المقبل، وافى الموسمَ من الأنصار اثنا عشر رجلا: عشرة من الخزرج واثنان من الأوس، واجتمعوا بالنبى ليلا عند العَقَبة الكبرى[1]؛ فعرض عليهم دعوة الإسلام، وطلب إليهم أن يبايعوه عليها فبايعوه. وسميت هذه البَيْعة «بيعة العقبة الأولى»، وكانت فى السنة الثانية عشرةَ من البَعثة.

روى ابن إسحاق عن عُبادة بن الصامت قال: بايعْنا رسولَ الله، صلى الله عليه وسلم، على ألا نشرك بالله شيئًا، ولا نسرق، ولا نزنى، ولا نقتل أولادنا، ولا نأتى ببهتان نفتريه

(١) العقبة هى المكان الذى ترمى فيه الجمار أيام الحج، وهى ثلاث عقبات: الكبرى والصغرى والوسطى.

بين أيدينا وأرجلنا، ولا نعصيه فى معروف. قال : « فإن وَفَيْتم فلكم الجنة، وإن غَشِيتم من ذلك شيئًا فأُخِذتم بحَدّه فى الدنيا فهو كفارة له، وإن سُترتم عليه إلى يوم القيامة فأمركم إلى الله عز وجل، إن شاء عذّب وإن شاء غَفر ».

قال ابن إسحاق : « فلما انصرف عنه القوم، بعث رسول الله ﷺ معهم مُصعَبَ بن عُمَير، وأمره أن يُقرئهم القرآن، ويعلمهم الإسلام، ويفقّههم فى الدين. فكان يسمى « المقرئ » بالمدينة ».

صورة من صور الدعوة إلى الإسلام فى المدينة

ونزل مصعبُ بن عُمير بالمدينة على أسعد بن زُرَارة من بنى النجار، فأقام عنده. وكان أسعد من النفر الذين أسلموا من الخزرج يوم عرض عليهم رسول الله ﷺ دعوته، ومن الذين حضروا بيعة العقبة الأولى والثانية. وجعل أسعد ومصعب يتعاونان على الدعوة إلى الله، ويجتهدان اجتهادًا شديدًا فى الترغيب فى الإسلام. وكان لهما فى ذلك حِيَل لطيفة، ومداخل محببة إلى القلوب.

ذكر ابن الأثير وابن إسحاق : أن أسعد بن زرارة خرج بمصعب بن عمير، يريد دار بنى عبد الأشْهَل ودار بنى ظُفَر؛

فدخل به حائطًا[1] منْ حوائط بني ظفر، واجتمع إليهما رجال ممن أسلم. فسمع به سعد بن مُعاذ وأُسَيْد بن الحُضَيْر - وهما يومئذ سيدا قومهما من بنى عبد الأشهل، كلاهما مشرك على دين قومه - فقال: سعد لأسيد: «انطلق إلى هذين اللذين أتيا دارنا فازجُرْهما وانْهَهُما، فإنه لولا أسعد بن زرارة - وهو ابن خالتى - كفيتك ذلك. فأخذ أُسيد حَرْبته ثم أقبل عليهما فقال: ما جاء بكما تسفِّهان ضعفاءنا؟ اعتزلا عنا! فقال مصعب: أوَ تجلسُ فتسمع؟ فإن رضيت أمرًا قبلته، وإن كرهته كُفَّ عنك ما تكرهه.. فقال: أنصفت. ثم جلس إليهما؛ فكلمه مصعب بالإسلام فقال: ما أحسن هذا وأجلّه! كيف تصنعون إذا دخلتم فى هذا الدين؟ قالا: تغتسل وتطهر ثيابك، ثم تشهد شهادة الحق، ثم تصلى ركعتين.. فَفَعل ذلك وأسلم. ثم قال لهما: إن ورائى رجلا إنْ تبعكما لم يتخلفْ عنكما أحد من قومه: سعد بن معاذ. وسأرسله إليكما.. ثم انصرف إلى سعد وقومه. فلما نظر إليه سعد قال: أحلف بالله، لقد جاءكم أسيْد بغير الوجه الذى ذهب به! ثم قال لأسيد: ما فعلت؟ قال: كلمت الرجلين فوالله ما رأيت بهما بأسًا، وقد نهيتهما فقالا:

---

(١) الحائط: البستان ذو الأشجار المثمرة. وكان من عادة العرب أن يحيطوا بساتينهم بحائط من البنيان فسمى البستان، بالحائط.

نفعل ما أحببت. وقد حُدِّثت أن بنى حارثة قد خرجوا إلى أسعد بن زرارة ليقتلوه. فقام سعد مغضبًا مبادرًا لخوفه مما ذكر له. فلما رآهما مطمئنين عرف ما أراد أسيد؛ فوقف عليهما مُتَشتِّمًا، ثم قال لأسعد بن زرارة: والله يا أبا أمامة والله، لولا ما بينى وبينك من القرابة ما رُمْتَ هذا منى! أتغْشانا فى دارنا بما نكره؟ فقال له مصعب: أو تقعد فتسمع؛ فإن رضيت أمرًا قبلته، وإن كرهته عزلنا عنك ما تكره..؟ فجلس. فعرض عليه الإسلام، وقرأ عليه القرآن؛ فهش له وجهه، ثم قال: كيف تصنعون إذا دخلتم فى هذا الدين؟ فقالا له ما قالا لأسيد. فتطهر وأسلم، ثم عاد إلى نادى قومه ومعه أسيد ابن حضير. فلما وقف عليهم قال: يابنى عبد الأشهل، كيف تعلمون أمرى فيكم؟ قالوا: سيدنا وأفضلنا! قال: فإن كلام رجالكم ونسائكم علىّ حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله! (قال): فوالله ما أمسى فى دار بنى عبد الأشهل رجل ولا امرأة إلا مسلمًا ومسلمة.. ولم يزل مصعب وأسعد يدعوان إلى الإسلام، حتى لم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رجال مسلمون ونساء مسلمات.

الدعوة تنتشر فى المدينة بعد طول احتباسها فى مكة

وهكذا لم يأت الموسم التالى من مواسم الحج، حتى كان

الإسلام قد شاع فى يثرب، وانتشر فى ديار الأوس والخزرج. فلما حضر الموسم تأهب للقاء النبى ﷺ من هؤلاء الأنصار ثلاثة وسبعون رجلا وامرأتان؛ قد خرجوا فى حجاج قومهم من المشركين، وخرج معهم مصعب بن عمير. فلما وصلوا إلى مكة بادر مصعب إلى رسول الله ﷺ، فبشره بما كان من شيوع الإسلام بين الأنصار، وما كان من استعدادهم لحماية الرسول وصحبه حتى يبلغ رسالة ربه. وكان فرح النبى ﷺ عظيما بهذه البشرى؛ فقد آذن الله لدينه بالنصر، وتحقق للنبى ما كان يرجوه من حماية الدعوة التى فقدت أنصارها فى مكة، ولم تجد لها فى قبائل العرب من غيرهم ناصرًا ولا معينًا.

لقد ظلت الدعوة حبيسة فى مكة ثلاثة عشر عامًا، فلم يؤمن بها إلا هذا العدد القليل من المستضعفين، ووقفت العقبات فى طريقها من كل ناحية حتى توقفت أو كادت، وأصبح المؤمنون بها بين مفتون فى دينه، أو معذّب فى أهله، أو مشرد عن دياره، أو مقيم على أحر من الجمر من شدة ما يلاقى من الهوان والإذلال. فقد غدا الأمر إذن يقتضى التفكير فى أمر هؤلاء المعذبين، وفى إنقاذهم مما يعانون من هذا البلاء؛ كما أصبح يقتضى الانتقال بهذه الدعوة الحبيسة إلى أرض كغير هذه الأرض، وناس غير هؤلاء الناس. وكان الله جل شأنه قد

بشر رسوله بالنصر، وأراه فى منامه دار هجرته أرضًا ذات نخيل؛ فاستبشر، صلى الله عليه وسلم، بذلك، وبشر به أصحابه وقال لهم: «أريت دار هجرتكم.. أريت سَبِخَةً ذات نخيل بين لا بَتَين[1]؛ ولو كانت السَّراة أرضًا ذات نخل وسباخ لقلت: هى هى!».

وها هى ذى المدينة يثرب تستقبل دعوته بقلوب متفتحة للإيمان، نفوس راغبة فى التضحية، وها هم أولاء أهلها من الأوس والخزرج مستعدون لإيوائه ونصره. فقد آن الأوان إذن للخروج بدينه وصحبه من هذه القرية الظالم أهلها، إلى هذه البلدة الطيبة يثرب، حيث المنعة والنصر والحرية، وحيث النفوس المستعدة لتقبل دين الله والتضحية فى سبيله.

الرسول يمهد للهجرة

وأخذ، صلى الله عليه وسلم، يعد العدة لهذه النَّقْلة الجديدة، بعقد بيعة جديدة مع أولئك الأنصار، يضمن فيها لنفسه ولأصحابه المنعة والحماية، ويضمن لدعوته السير فى طريقها، دون أن يعترضها معترض، أو يقف فى سبيلها واقف؛ وهذا ما كان بينه وبين صحبه الأنصار فى هذه البيعة. ولقد

---

(١) السبخة: أرض ذات نزوملح. واللابتان: هما الحرتان اللتان تحدان المدينة شرقًا وغربًا، وهما هضبتان صخريتان تتألفان من حجارة نخرة سوداء.

كان، صلى الله عليه وسلم، حريصًا على أن تتم هـذه البيعـة فى سر، وألا تتسرب أنباؤها إلى قريش؛ فواعد أصحابه من الأنصار «شِعْبَ العَقَبة»، فى ليلة اليوم الثانى من أيام التشريق، وأوحـى إليهم أن يكتموا هذا الأمر على مـن معهـم مـن المشركين، وأن يأتوا إليه متفرقين إذا مضى ثلث الليل الأول، لا ينتظرون غـائبًا ولا يوقظون نائماً. وفى الليلة الموعودة، أوحى رسول الله ﷺ إلى أبى بكر أن يقف على فَـمِ الشـعب مـن نـاحية، وإلى على ابن أبى طالب أن يقف فى فمه من النـاحية الأخـرى. ثم جـاء ومعه عمه العباس، ليأخذ البيعـة لـه ولأصـحابه على هـؤلاء الأنصار المتحمسين.

البيعة الكبرى

ويحدثنا كعب بن مالك، رضى الله عنـه، كيف تمـت هـذه البيعة فيقول: «خرجنا مع حجـاج قـومنا مـن المشركين، وقـد صلينا وفَقَهنا، ومعنا البَرَاء بن مَعْـرور سيدُنا وكبيرنا.. حـتى قدمنا مكة. فخرجنا نسـأل عـن رسـول الله، صلى الله عليـه وسلم، وكنا لا نعرفه ولم نره قبل ذلك. فلقينا رجلا مـن أهـل مكة، فسألناه عن رسول الله، صلى الله عليه وسلم. قال: هـل تعرفانه؟ فقلنا: لا. فقـال: هـل تعـرفان العبـاس ابن عبد المطلب عمه؟ قلنا: نعم - وقد كنا نعرف العبـاس،

وكان لا يزال يقدَم علينا تاجرًا - قال : فإذا دخلتما المسجد فهو الرجل الجالس مع العباس. (قال) : فدخلنا المسجد، وإذا العباس جالس، ورسول الله جالس معه. فسلمنا ثم جلسنا. فقال صلى الله عليه وسلم، للعباس : « هل تعرف هذين الرجلين يا أبا الفضل؟ » قال : نعم. هذا البراء ابن معرور سيد قومه. وهذا كعب بن مالك. (قال) : فوالله ما أنسى قول رسول الله، صلى الله عليه وسلم : « الشاعر؟ » قال : نعم.

قال كعب بن مالك : ثم خرجنا إلى الحج، وواعدنا رسولَ الله ﷺ العقبة من أوسط أيام التشريق. فلما فرغنا من الحج، وكانت الليلة التى واعدنا رسولَ الله فيها، ومعنا عبد الله ابن عمرو بن حزام أبو جابر - سيد من سادتنا - أخذناه. وكنا قد كتمنا مَن معنا من المشركين أمرنا. فكلمناه وقلنا له : يا أبا جابر، إنك سيد من سادتنا وشريف من أشرافنا، وإنا نرغب بك عما أنت فيه أن تكون حطباً للنار غدًا. ثم دعوناه إلى الإسلام فأسلم، وأخبرناه بميعاد رسول الله إيانا. فشهد معنا العقبة وكان نقيبًا. (قال) : فنمنا تلك الليلة مع قومنا فى رحالنا، حتى إذا مضى ثلث الليل، خرجنا من رحالنا لميعاد رسول الله، صلى الله عليه وسلم، نتسلل تسلُّل القَطَا مستخفين، حتى اجتمعنا فى الشعب عند العقبة، ونحن ثلاثة وسبعون

رجلا، ومعنا امرأتان من نسائنا.

(قال): فاجتمعنا فى الشعب ننتظر رسول الله، صلى الله عليه وسلم، حتى جاءنا ومعه عمه العباس بن عبد المطلب، وهو يومئذ على دين قومه، إلا أنه أحب أن يحضُر أمر ابن أخيه ويستوثق له. فلما جلس كان أول متكلم العباس بن عبد المطلب، فقال: «يا معشر الخزرج - وكانت العرب إنما يسمون هذا الحى من الأنصار الخزرج، خزرجها وأوْسها - إن محمدًا منا حيث قد علمتم، وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه، فهو فى عز من قومه ومنعة فى بلده، وإنه قد أبى إلا الانحياز إليكم واللحوق بكم. فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه، ومانعوه ممن خالفه، فأنتم وما تحملتم من ذلك؛ وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم، فمن الآن فدعوه، فإنه فى عز ومنعة من قومه وبلده».. فقال البراء بن معرور: «إنا - والله - لو كان فى أنفسنا غير ما ننطق به لقلناه، ولكنا نريد الوفاء والصدق. وبذل مُهَجنا دون رسول الله، صلى الله عليه وسلم.. فتكلم يا رسول الله، فخذ لنفسك ولربك ما أحببت، فنحن نبايعك».

فتكلم رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فتلا القرآن، ودعا إلى الله، ورغّب فى الإسلام ثم قال: «تبايعونى على السمع

والطاعة فى النشاط والكسل، والنفقة فى العسر واليسر؛ وعلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وأن تقولوا فى الله لا تخافوا فى الله لومة لائم؛ وعلى أن تنصرونى، فتمنعونى - إذا قدمت عليكم - مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم، ولكم الجنة».. (قال) فأخذ البراء بن معرور بيده ثم قال: «نعم، والذى بعثك بالحق لنمنعنَّك مما نمنع منه أُزُرنا.. فبايِعْنا يا رسول الله، فنحن - والله - أبناء الحروب وأهل الحلقة[1]، ورثناها كابرًا عن كابر».. (قال): فاعترض القول - والبراء يكلم رسول الله - أبو الهَيْثَم بن التَّيِّهان، فقال: يا رسول الله، «إن بيننا وبين الرجال حبالا، وإنا قاطعوها - يعنى اليهود - فهل عَسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله، أن ترجع إلى قومك وتدعنا»؟ (قال): فتبسم رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ثم قال: «بل الدَّمَ الدم، والهدم الهدم..! أنا منكم وأنتم منى، أحارب من حاربتم، وأسالم من سالمتم..!».

قال كعب: وقد قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «أخرِجوا إلىّ منكم اثنى عشر نقيبًا، ليكونوا على قومهم بما فيهم كفلاء». فأخرَجوا منهم اثنى عشر نقيبًا: تسعة من الخزرج، وثلاثة من الأوس.. فقال، صلى الله عليه وسلم، للنقباء: «أنتم

---

(١) الحلقة: السلاح.

على قومكم بما فيهم كفلاء، ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم. وأنا كفيل على قومي». قالوا: «نعم».

(قال): فلما اجتمع القوم لبيعة رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قال العباس بن عبادة: «يا معشر الخزرج، هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل»..؟ قالوا: «نعم». قال: «إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس. فإن كنتم ترون أنه إذا أُنهِكت أموالُكم مصيبة وأشرافُكم قتلا.. أسلمتموه، فمن الآن فدعوه؛ فهو والله - إن فعلتم - خزيُ الدنيا والآخرة. وإن كنتم ترَوْن أنكم وافون له بما دعوتموه إليه - على نَهْكة الأموال وقتل الأشراف - فخذوه؛ فهو والله خير الدنيا والآخرة».. قالوا: «فإنا نأخذه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف.. فما لنا بذلك يا رسول الله إن نحن وَفيْنا؟» قال: «الجنة».. ! قالوا: «ابسط يدك».. فبسط يده فبايعوه.. ثم قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «ارفَضُّوا إلى رحالكم». (قال): فرجعنا إلى مضاجعنا، فنمنا فيها حتى أصبحنا.

فلما أصبحنا غدت علينا جِلة[1] قريش حتى جاءونا في منازلنا، فقالوا: يا معشر الخزرج، إنه قد بلغنا أنكم قد جئتم إلى صاحبنا هذا، تستخرجونه من بين أظهرنا، وتبايعونه على

(١) جلة القوم: سادتهم وكبراؤهم.

حربنا، وإنه - والله - ما من حيّ من العرب أبغضَ إلينا من أن تنشَب الحرب بيننا وبينهم منكم.. ! (قال) : فانبعث مَن هناك من مشركي قومنا يحلفون ما كان من هذا شيء وما علمناه ! (قال) : وصدَقوا.. لم يعلموه. وجعل بعضنا ينظر إلى بعض ».

كانت هذه البيعة قرة عين المسلمين

كانت هذه البيعة هي بيعة العقبة الثانية. وكانت أخطرَ بيعة في تاريخ الدعوة الإسلامية؛ فقد تغير بها خط السير فجأة، وتطورت بعدها الحوادث تطورًا سريعًا بين المسلمين وقريش.. فأما المسلمون فقد انفتحت أمامهم أبواب من الآمال واسعة، وأحسوا بعدها بما يحس به المكروب وَجدَ الفرج بعد الضيق، والأمل بعد اليأس، والأمن بعد الخوف، فأخذ يتنفس بملء رئتيه نفَس الراحة والطمأنينة.. فقد قضوا في مكة ثلاثة عشر عامًا وهم قليل مستضعَفون في الأرض، يذوقون ألوان العذاب والاضطهاد، ويُمْتَحَنُون في إيمانهم أشد الامتحان؛ فقُتل منهم من قتل، وفُتن منهم من فُتن، وصبر منهم من صبر، وفر بدينه من فر؛ حتى أصبحوا واليأس يكاد يغلبهم على أمرهم، لولا أن عصم الله قلوبهم بالإيمان، وأيدهم بروح منه. فلما تمت هذه البيعة بين رسول الله ﷺ والأنصار ملأ الأمل قلوبهم، وأيقنوا

أن نصر الله قريب؛ فجعلوا يتسابقون فى الهجرة إلى يثرب، فارّين بدينهم إلى الله، مضحّين بكل ما يحرص عليه الناس من عرَض الحياة الدنيا.

وصدمة عنيفة للمشركين

وأما قريش فقد أخذت أخذًا بهذه البيعة، وفوجئت بما لم يكن لها فى حسبان؛ فقد ظنت قريش أنها قد سيطرت على الموقف من جميع نواحيه، وأنها استطاعت أن تحبس الدعوة بين جبال مكة، وأن تؤثر على قلوب العرب فتحول بينهم وبينها إلى الأبد. كما ظنت أنها بما كان لها من المهابة بين العرب، قد أَمنت أن يعتدى على حرمتها أحد، أو يقف منها أحد موقف التحدى والعداوة بمناصرة هذه الدعوة. وعلى أساس هذا الظن أمِنوا واطمأنوا، وأيقنوا أن العرب جميعًا لن يؤمنوا بهذه الدعوة، ولن يؤيدوا صاحبها بالمنعة والمؤازرة. فلما علموا بأن الأوس والخزرج من أهل المدينة، قد تابعوا محمدًا، وبايعوه على أن ينصروه ويمنعوه ممن خالفه.. صُدموا بهذا النبأ صدمة عنيفة، وزُلزلوا زلزالا شديدًا، وطاشت أحلامهم، واضطرب تفكيرهم؛ فانقلبوا يلاحقون الأنصار فى كل طريق، ويطلبونهم فى كل وجه، يريدون أن ينتزعوا من أعناقهم هذه البَيعة الخطيرة. ولكن هيهات هيهات.. ﴿فوقع الحقُّ وبَطلَ ما كانوا يعملون ﴾ فغُلبوا

هنالك وانقلَبوا صاغرين﴾[1].

قال كعب بن مالك: «.. ونَفَر الناس من مِنى. فتَنَطَّس القوم الخبر فوجدوه قد كان، فخرجوا فى طلب القوم، فأدركوا سعد بن عبادة والمنذر بن عمرو. فأما المنذر فقد أعجز القومَ ففر منهم، وأما سعد بن عبادة فأخذوه، فربطوا يديه إلى عنقه بنسْع رحله[2]، ثم أقبلوا به حتى أدخلوه مكة يضربونه ويجذبونه بُجمَّته[3]؛ وكان ذا شعر كثير..

قال سعد: فوالله إنى لفى أيديهم يسحبوننى، إذ أوَى لى رجل ممن معهم، فقال: ويحك! أما بينك وبين أحد من قريش جوار ولا عهد؟ قلت: بلى والله، لقد كنت أُجير لجبير ابن مطعم تُجّاره. وأمنعهم ممن أراد ظلمهم ببلادى، وللحارث ابن حرب بن أمية. فقال: فاهتِف باسم الرجلين، واذكر ما بينك وبينهما (قال): ففعلت، وخرج ذلك الرجل إليهما، فوجدهما فى المسجد عند الكعبة. فقال لهما: إن رجلا من الخزرج الآن يضرب بالأبطح[4] ليَهتفُ باسمكما. قالا: من هو؟ قال: سعد بن عبادة. قالا: صدق والله، إنْ كان ليَجير لنا

(١) سورة الأعراف آيتا ١١٨، ١١٩.

(٢) النسع: سير عريض تشد به الرحال.

(٣) الجمة: مجتمع شعر الرأس.

(٤) الأبطح: واد بظاهر مكة واسع كثير الحصى.

تجارنا، ويمنعهم أن يظلموا ببلده.. فجاءا إليه فخلصاه من أيديهم».

قال ابن سعد فى الطبقات: وائتمرت الأنصار حين فقدوا سعد بن عبادة أن يَكُرُّوا إليه، فإذا سعد قد طلع عليهم. فدخل القوم جميعًا إلى المدينة.

وحدًّا فاصلاً بين عهدين من عهود الدعوة

لقد كانت هذه البيعة حدًّا فاصلا بين عهدين من عهود الدعوة.. كان أولهما عهد ابتلاء واختبار، وهو العهد الذى قضاه المسلمون بمكة؛ فقد عاشوا فيه قلة مستضعفين، بين عدو قاهر جبار، يسومهم سوء العذاب، ويذيقهم من صنوف الأذى ما لا يمكن أن يطاق، ولا أن يحتمله بشر من الناس، إلا أن يكون له مدد قوى من الإيمان الصادق واليقين الثابت. وكأنما كان ذلك امتحانًا من الله لهم، أراد به تمحيصهم، وإعدادهم ليكونوا نماذج للعقيدة الصالحة، التى أراد لهم أن ينشروها فى الأرض.

فلما تأكد نجاحهم فى الامتحان، وتبين صدق إيمانهم وقوة عزمهم، أدركهم عهد المكافأة والجزاء على الصبر؛ فاستنقذهم الله من هذا العذاب، وهيأ لهم هذه المدينة الآمنة فهاجروا

إليها، وقيض لهم هؤلاء الإخوة المخلصين من أهلها فآوَوْهم ونصروهم، وقاسموهم أموالهم وديارهم، وآثروهم على أنفسهم بكثير من الطيبات؛ وفتح الله لهم أبواب رحمته فبدّل خوفهم أمنًا، وذلهم عزًّا، وهوانهم كرامة.

ولقد منّ الله عليهم بهذه النعمة إذ يقول سبحانه: ﴿واذكروا إذْ أنتم قليلٌ مستَضْعفون فى الأرض تخافون أن يتخَطَّفكم الناسُ فآواكم وأيَّدكم بنصره ورزقكم من الطيبات، لعلكم تَشكُرون﴾[1].

(١) سورة الأنفال الآية ٢٦

المؤامرة الكبرى

قريش تحس الخطر فى بيعة الأنصار
فتحول بين المسلمين وبين الهجرة

أحسَّت قريش مبلغ الخطر الذى يهددها من بيعة العقبة الثانية، فقد بايع الأنصار رسول الله ﷺ على حرب الأحمر والأسود من الناس، وبايعهم رسول الله على أن يكون واحدًا منهم، يحارب من حاربهم، ويسالم من سالمهم؛ فهى القوة المسلحة إذن من وراء محمد تشد أزره، وتحمى ظهره، وتنصره على عدوه. وقريش أعدى عدو للرسول، صلى الله عليه وسلم؛ وأشد من ناوأه وتعرض للصد عن دعوته، وحال بينه وبين ما يريد من نشرها وتبليغها للناس؛ وأشَد مَن آذى المؤمنين به، وجاهد أعنف الجهاد فى فتنتهم عن دينهم، وإرجاعهم إلى ظلمات الكفر والضلال، بعد أن أشرق فى قلوبهم نور الإيمان والهدى. ولقد استطاعوا بما كان لهم من الحول والطول أن يحصروا الإسلام فى هذا النفر القليل من أصحابه، وأن يحبسوا الدعوة فى مكة ثلاثة عشر عامًا، فلا يعرف العرب من أنبائها

إلا القليل، وأن يشوهوا حقيقتها وأغراضها فى أذهانهم، فلا يؤمنوا بها ولا يلتفتوا إليها. ولكن الله الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق، أراد لدينه أن ينتشر فى الأرض، فقيض له هذه الفئة المؤمنة من أهل المدينة، فآمنت برسوله، وصدقت بما جاء به من البينات والهدى، وعاهدته على أن تدافع عنه بالأنفس والأموال، وأن تجاهد فى سبيله كل عدو، مهما كان لونه ومهما كانت مكانته.

وكانت قريش تعرف ما عليه الأوس والخزرج من قوة البأس، فجعلت تحسُب حساب هذه القوة إذا وقفت فى طريقها إلى الشام، فهددت تجارتها فى الذهاب وفى الإياب. ولا سيما إذا هاجر المؤمنون من أهل مكة فانضموا إليهم، وأصبح الجميع يداً واحدة على قريش. وفيما كانت قريش تفكر وتقدر، كان الرسول، صلى الله عليه وسلم، قد دبر الأمر لأصحابه، فأذن لهم فى الخروج إلى إخوانهم الأنصار. فجعلوا يتسللون إلى المدينة، ويهاجرون إليها واحدًا بعد واحد، وجماعة إثر جماعة، تاركين وراءهم كل ما يُثْقلهم من مال ومتاع، وأهل وعشيرة.

قال ابن إسحاق: «لما أذن الله تعالى لرسوله فى الحرب، وبايعه هذا الحى من الأنصار على الإسلام والنُّصرة له ولمن اتبعه وأوى إليهم من المسلمين، أمر رسول الله ﷺ أصحابه من

المهاجرين من قومه وممن معه بمكة من المسلمين بالخروج إلى المدينة والهجرة إليها، واللحوق بإخوانهم من الأنصار، وقال: «إن الله قد جعل لكم إخوانًا ودارًا تأمنون بها» فخرجوا إليها أرسالا؛ وأقام - صلى الله عليه وسلم - بمكة ينتظر أن يأذن له ربه فى الخروج من مكة، والهجرة إلى المدينة».

المسلمون يتسللون تباعًا إلى المدينة

فلما رأت قريش أن المسلمين يتسللون تباعًا من بينهم، ويلتحقون بإخوانهم الأنصار من أهل المدينة، أحست بوادر الخطر فى هذه الهجرة، فجعلت تحول بينهم وبين مايريدون منها، وتمنع من تستطيع أن تمنعه منهم. لكنها لم تستطع أن تمنع إلا قليلا من المستضعفين، أما الأقوياء بعصبيتهم أو بشخصيتهم فقد استطاعوا أن يخرجوا على رغم قريش.

ويروى الرواة فى هجرة أصحاب النبى ﷺ قصصًا كثيرة، تدل على شدة ماكانوا يلاقون من الأذى من رجال قريش، وعلى عظم ماكانوا يقومون به من تضحيات فى سبيل هجرتهم.. فقد رَوَوْا أن أبا سَلَمة لما أقبل مهاجرًا إلى المدينة، وقفت دونه قريش تحول بينه وبين ولده وزوجته؛ فآثر أن يتركهما ويفرّ بدينه إلى الله، حتى ردهما الله عليه فهاجرا إليه.

هجرة أبي سلمة وزوجه

وقد تحدثت أم سلمة - فيما رواه ابن إسحاق - بما كان من أمرها وأمر زوجها فى هذه الهجرة فقالت: «لما أجمع أبوسلمة الخروج إلى المدينة، رحَل لى بعيرَه ثم حملنى عليه، وجعل معى ابنى سلمة بن أبى سلمة فى حجرى، ثم خرج يقود بى بعيره. فلما رأته رجال بنى المُغيرة قاموا إليه فقالوا: «هذه نفسك غلبتنا عليها. أرأيت صاحبتنا هذه، علام نتركك تسير بها فى البلاد» (قالت): فنزعوا خُطام البعير من يده وأخذونى منه (قالت): وغضب عند ذلك بنو عبدالأسد - رهط أبى سلمة - وقالوا: «والله لا نترك ابننا عندها إذ نزعتموها من صاحبنا!». (قالت): فتجاذبوا ابنى سلمة بينهم حتى خلعوا يده. وانطلق به بنو عبد الأسد، وحبسنى بنو المغيرة عندهم، وانطلق زوجى أبو سلمة إلى المدينة. (قالت): ففَرّق بينى وبين ابنى وبين زوجى.

(قالت): فكنت أخرج فى كل غَداة فأجلس فى الأبطح، فما أزال أبكى حتى أمسى، سنةً أو قريبًا منها؛ حتى مر بى رجل من بنى عمى - أحد بنى المغيرة - فرأى ما بى فرحمنى فقال لبنى المغيرة: «ألا ترحمون هذه المسكينة؟ فرقتم بينها وبين زوجها وبين ولدها!» (قالت): فقالوا لى: «الحقى بزوجك إن

شئت». (قالت): فرد بنو عبد الأسد إلىّ عند ذلك ابني فارتحلت بعيرى، ثم أخذت ابنى فوضعته فى حجرى ثم خرجت أريد زوجى بالمدينة، وما معى أحد من خلق الله.

حتى إذا كنت بالتّنْعيم، لقيت عثمان بن طلحة بن أبى طلحة - أخا بنى عبد الدار - فقال لى: إلى أين يا ابنة أبى أمية؟ قلت: أريد زوجى بالمدينة. قال: أو ما معك أحد؟ قلت: ما معى أحد إلا الله وبنىّ هذا! فقال: والله مالك من مُتَّرك[1]. فأخذ بخطام البعير فانطلق معى يهوِى بى[2].. فوالله ما صحبت رجلا من العرب قَط أرى أنه كان أكرم منه!.. كان إذا بلغ المنزل أناخ بى، ثم استأخر عنى؛ حتى إذا نزلت استأخر ببعيرى فحط عنه، ثم قيده فى الشجرة، ثم تنحى إلى شجرة أخرى فاضطجع تحتها. فإذا دنا الروَاح قام إلى بعيرى فقدَّمه فرحله، ثم استأخر عنى وقال: اركبى. فإذا ركبت فاستويت على بعيرى، أتى فأخذ بخطامه، فقادنى حتى ينزل بى.. فلم يزل يصنع ذلك بى حتى أقدمنى المدينة. فلما نظر إلى قرية بنى عمرو بن عوف بقُبَاء قال: زوجك فى هذه القرية - وكان أبو سلمة بها نازلا - فادخليها على بركة الله. ثم انصرف راجعًا

(١) من متّرك: أى لا يصح أن تتركى وحدك.
(٢) يهوى: أى يسير بى سيرًا حثيثًا.

إلى مكة.. فكانت تقول: ما أعلم أهل بيت فى الإسلام أصابهم ما أصاب آل أبى سلمة؛ وما رأيت صاحبًا قط كان أكرم من عثمان بن أبى طلحة!»

هجرة صُهيب

ورَوْوا أن صُهيب بن سِنَان لما أراد الهجرة، قال له كفار قريش: أتيتنا صُعلوكًا حقيرًا، فكثر مالك عندنا، وبلغت الذى بلغت؛ ثم تريد أن تخرج بمالك ونفسك؟ والله لا يكون ذلك أبدًا!.. فقال لهم صُهيب: أرأيتم إن جعلت لكم مالى، أتُخلون سبيلى؟ قالوا: نعم. قال: فإنى جعلت لكم مالى.. (قال): فبلغ ذلك رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فجعل يقول: «رَبح صُهيب! ربح صُهيب!».. وأنزل الله فى ذلك قوله سبحانه: ﴿ومن الناس من يَشْرِى نفسه ابتغاءَ مرضاةِ الله، والله رءوف بالعباد﴾[1].. فتلقاه أصحابه بها يبشرونه عند قدومه إلى المدينة.

رد عياش إلى مكة

ورَوَوْا أن عَيَّاش بن أبى ربيعة لما هاجر إلى المدينة، خرج أليه أبو جهل بن هشام وأخوه الحارث بن هشام - وكان عياش

(١) سورة البقرة الآية ٢٠٧.

أخاهما وابن عمهما، وكان أصغر ولد أمه - فأخبراه أن أمه نذرت ألا تغسل شعرها، ولا يمس رأسها مُشط، ولا تستظل من شمس، حتى تراه. ثم قالا له : وأنت أحب ولد أمك إليها، وأنت فى دين منه البر للوالدين؛ فارجع إلى أمك، واعبد ربك فى مكة كما تعبده فى المدينة. فَرقَّت نفسه وصدقهما فقال له عمر بن الخطاب : ما يريدان - والله - إلا فتنتك عن دينك، فاحذرهما! فوالله لو قد آذى أمك القمل لامتشطت، ولو اشتد عليها حر الشمس لاستظلت. فقال عياش : أَبَرّ أمى، ولى مال هناك آخذه. فقال له عمر : خذ نصف مالى ولا تذهب معهما. فأبى إلا أن يخرج معهما. فقال له عمر : أما إذ أبيت إلا ذلك فخذ ناقتى هذه فإنها نجيبة ذَلول، فالزم ظهرها، فإن رابك من أمرهما رَيب فانجُ عليها. . فخرج عليها معهما، حتى إذا كانوا ببعض الطريق قال له أبو جهل : يا أخى، والله لقد استغلظت بعيرى هذا »[١]، أفلا تُعْقِبنى[٢] على ناقتك هذه؟ قال : بلى. فأناخ وأناخا ليتحول عليها. . فلما استوَوْا بالأرض عَدوَا عليه فأوثقاه بالحبال، وجلداه نحوًا من مائة جلدة. ثم دخلا به مكة مُوثَقًا فى ضوء النهار، وقالا : يا أهل مكة، هكذا فافعلوا بسفهائكم كما فعلنا بسفهائنا!

(١) استغلظت : أى تعبت من ركوبه.

(٢) التعاقب : تبادل الركوب على الدابة.

هجرة عمر

أما عمر بن الخطاب، فقد أبى إلا أن يستعلن بهجرته كما استعلن بإسلامه، فقد روى عن علي بن أبي طالب أنه قال: ما علمت أحدًا من المهاجرين هاجر إلا مختفيًا؛ إلا عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، فإنه لما هم بالهجرة، تقلد سيفه وتنكَّب قوسه، وانتضى في يديه أسهمًا، واختصر عَنَزَته - وهي الحربة الصغيرة علقها في خاصرته - ومضى قِبَل الكعبة والملأ من قريش بفنائها، فطاف بالبيت سبعًا، ثم أتى المقام فصلى ركعتين، ثم وقف على الحلَق[1] واحدة واحدة فقال: شاهت الوجوه؟ لا يُرْغِم الله إلا هذه المعَاطس! من أراد أن تثْكَله أمُّه، أو ييْتَم ولدُه، أو تُرمَّل زوجته، فلْيَلْقَني وراء هذا الوادي! قال علي: فما تبعه أحد. ثم مضى لوجهه.

الرياح تصفر في دور المهاجرين

وهكذا جعل المسلمون يهجرون مكة حتى خلت منهم ديارها، وحتى هُجرت دور بأسرها، وغُلقت أبوابها، وغدت تصفر فيها الرياح. وكان من هذه الدور دار بني جحش ودار بني مَظْعون، ودار بني البكَيْر. . هجرها سكانها رجالاً ونساء، وكبارًا وصغارًا.

(١) الحلق: مجالس القوم وحلقاتهم.

ذكر ابن إسحاق أن عتبة بن ربيعة، والعباس بن عبد المطلب، وأبا جهل بن هشام، مروا وهم مُصْعِدون إلى أعلى مكة، بدار بنى جحش، فنظر إليها عتبة تَخْفُق أبوابها يَبَابًا ليس فيه ساكن! فلما رآها كذلك تنفس الصُّعَدَاء ثم قال:

وكل دار وإن طالت سلامتها يومًا ستدركها النَّكْبَاءُ والحوبُ

ثم قال: أصبحت دار بنى جحش خلاءً من أهلها! فقال أبو جهل، وهو يشير إلى العباس: هذا عمل ابن أخى هذا.. فرق جماعتنا، وشتت أمرنا، وقطَّع بيْنَنا!

وما زال المسلمون يتلاحقون بالمدينة، حتى لم يبق بمكة إلا رسول الله ﷺ وأبو بكر وعلىّ، وإلا من اعتُقل مُكرَهًا من مفتون أو محبوس أو مريض أو ضعيف عن الخروج؛ وهم المستضعفون الذين قال الله فيهم: ﴿إلا المستضعفين من الرجال والنساء والوِلْدانِ لا يستطيعون حيلةً ولا يهتدون سبيلاً * فأولئك عسَى الله أن يعفو عنهم، وكان الله عَفُوًّا غفورًا﴾[1].

الأنصارُ يؤوون المهاجرين

ونزل المهاجرون من أهل مكة على إخوانهم من أهل المدينة فآوَوْهم وآسَوْهم، وقاسموهم أموالهم وديارهم، وأنزلوهم من

(١) سورة النساء آيتا ٩٨، ٩٩.

نفوسهم منزلة الأهل والعشيرة، وتوزع الأنصار فيما بينهم إخوانهم المهاجرين؛ فنزل أصحاب الأسر منهم على أصحاب الأسر، ونزل الأعزب على سعد بن خَيْثَمة - فيما يقال - لأنه كان عزبًا.

أما رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقد بقى بمكة، ينتظر أن يؤذَن له فى الهجرة. وكان أبو بكر كلما أراد الهجرة، استمهله رسول الله وقال له: «لا تعجل، لعل الله يجعل لك صاحبًا»! فأدرك أبو بكر أن الرسول على نية الهجرة، ولكنه ينتظر الإذن له فيها؛ فاشترى راحلتين فاحتبسهما فى داره وجعل يعلفهما ويُعِدّهما لهذه الهجرة.

قريش تأتمر بالرسول

وتوجست قريش خيفة من هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة، فقد صار أصحابه فيها كثرة يُحسب حسابها. وكان لا بد لها من عمل سريع حاسم، تقضى به على أسباب هذا الخوف الذى يُقِضُّ مضجعها، وتتخلص به من هذا العدو الذى يتفاقم خطره يومًا بعد يوم..

قال ابن إسحاق: «ولما رأت قريش أن رسول الله ﷺ قد صارت له شيعة وأصحاب من غيرهم بغير بلدهم، ورأوا خروج أصحابه من المهاجرين إليهم.. عرفوا أنهم قد نزلوا دارًا

وأصابوا منهم مَنَعة؛ فحذِروا خروج رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وعرفوا أنه قد أجمع لحربهم. فاجتمعوا فى دار الندوة، يتشاورون ما يصنعون فى أمر رسول الله ﷺ حين خافوه»..

فلما اجتمعوا جعلوا يقلبون وجوه الرأى فيما بينهم.. أيحبسونه فى الحديد ويغلقون عليه بابًا، ثم يتربصون به ما أصاب أشباهه من الشعراء..؟ ولكن هذا الرأى لم يلق سميعًا؛ فقد خافوا أن يأتى إليه أصحابه من المهاجرين والأنصار، فيخلصوه وينتزعوه من بين أيديهم.. أيخرجونه من ديارهم ثم يتركونه يذهب حيث شاء..؟ ولكن هذا الرأى كذلك لم يلق سميعًا؛ فقد خافوا حلاوة منطقه وسحر بيانه وقدرته على اجتذاب القلوب، أن تجعل له أنصارًا فى كل مكان يذهب إليه، فينتشر أمره ويشتد ساعده، ثم يكون هو ومن يناصره قوة تهدد أمنهم وطمأنينتهم.. أيقتلونه؟.. ولكن كيف يقتلونه وقد حاطه بنو عبد مناف من جميع نواحيه؟ ومن أى قبيلة يمكن أن يكون هذا القاتل؟ وأى قبيلة تستطيع أن تتصدى لعداء بنى عبد مناف؟.. ومازالوا يقدرون ويدبرون، ويتبادلون وجوه الرأى فيما بينهم، حتى اتفقوا على أن يقتلوه بطريقة مأمونة العاقبة.. ذلك أن يختاروا من كل قبيلة فتى جلْدًا شجاعًا، ثم يذهبوا إليه فيضربوه جميعًا بسيوفهم - ضربة رجل واحد - فيقتلوه، فيتفرق

بذلك دمه فى القبائل كلها، وإذن لا يستطيع بنو هاشم أن يقاتلوا العرب جميعًا، فيرضون بالدية، فيؤدونها إليهم. وبذلك ينتهى أمر محمد ودينه، وتعود مكة إلى ما كانت عليه من الأمن والطمأنينة والشمل الجميع.

الرسول يرسم خطته للخروج من مكة

وهكذا دبروا الخطة ورسموا خطوطها، على أن ينفذوها ليلا.. ولكنّ لله تدبيرًا فوق تدبيرهم، ويدًا فوق أيديهم. فقد أوحى الله إلى رسوله بما دبروا له من كيد، وأذن له فى الهجرة إلى المدينة؛ فجعل صلى الله عليه وسلم يدبر لنفسه خطة الخروج، وحرص كل الحرص على ألا يتسرب أمرها إلى قريش.

وقدّر رسول الله أن قريشًا ستحصر داره فى الليل، لتقطع عليه طريق الفرار.. فإذا استطاع أن يفر منها فإنها - ولا شك - ستنبش أرض مكة كلها بحثًا وراءه، وستقتفى أثره حيثما ذهب، وسترصد أفواه الطرق ومنافذ السير حتى لا يستطيع الخروج منها، وستبذل فى ذلك كل ما تستطيع من جهد .. فإذا أعجزها العثور عليه بعد ذلك كله، غُلبت على أمرها واستسلمت لليأس، حتى إذا استيقنت أنه قد فاتها إدراكه، هدأت ثائرتها وكفت عن طلبه وتتبعه.

وعلى هذا الأساس رسم رسول الله ﷺ خطته؛ فأوحى إلى

ابن عمه عليّ أن يبيت على فراشه تلك الليلة، وأخبره بما كان من عزمه على الهجرة، وأمره أن يتخلف عنه حتى يؤدى ما عنده من الودائع إلى أصحابها وكان - صلى الله عليه وسلم - موضع الثقة من أهل مكة جميعًا، فكانوا يحفظون عنده ودائعهم وما يخافون عليه من أشيائهم، لما كانوا يعرفون من صدقه وأمانته. ثم ذهب، صلى الله عليه وسلم، إلى أبى بكر فى داره، ليخبره بأن الله قد أذن له فى الهجرة، وليتخذه صاحبًا له فى هجرته، وليتفقا معًا على ما ينبغى عمله لترتيب خطوات السير، حتى تكون مأمونة العاقبة.

روى ابن إسحاق عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت: «كان لا يخطئ رسول الله ﷺ أن يأتى بيت أبى بكر أحد طرفى النهار، إما بُكرة وإما عَشِية[1] حتى إذا كان اليوم الذى أذن الله فيه لرسوله فى الهجرة، والخروج من مكة من بين ظهرى قومه، أتانا رسول الله ﷺ بالهاجرة[2]، فى ساعة كان لا يأتى فيها. (قالت): فلما رآه أبو بكر قال: ما جاء رسول الله فى هذه الساعة إلا لأمر حدث! (قالت): فلما دخل، تأخر له أبو بكر عن سريره؛ فجلس رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وليس

(١) عشية: أى لم يكن يفوته ذلك قط.
(٢) الهاجرة: فى وقت الظهيرة.

عند أبى بكر إلا أنا وأختى أسماء بنت أبى بكر. فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «أخرجْ عنى مَن عندك»! قال: «يا رسول الله إنما هما ابنتاى.. وماذاك؟ فداك أبى وأمى» قال: «إن الله قد أذن لى فى الخروج والهجرة». (قالت): فقال أبو بكر: «الصحبةَ يا رسول الله»! قال: «الصحبة». (قالت): فوالله ما شعرت قط قبل ذلك اليوم، أن أحدًا يبكى من الفرح، حتى رأيت أبا بكر يومئذ يبكى..! ثم قال: «يا نبى الله، إن هاتين راحلتين كنت أعددتهما لهذا..» فاستأجرا عبد الله بن أُرَيْقِط - رجلاً من بنى الدُّئِل بن بكر، وكان مشركًا - يدلهما على الطريق، ودفعا إليه راحلتيهما، فكانتا عنده يرعاهما لميعادهما».

وكانت الخطة التى رسمها رسول الله ﷺ وأبو بكر، أن يخرجا ليلاً إلى «غار ثور» وأن يختفيا فى ذلك الغار مدة، حتى ينظرا ما يكون من حال القوم فى شأنهما.. حتى إذا هدأت العاصفة وكف الطلب عنهما، أخذا فى السير إلى المدينة من طريق غير الطريق المألوف. وكان لا بد لهما من دليل حاذق يَهديهما فى مسالك الصحراء الواسعة، ويأخذ بهما آمَنَ طريق وأبعده عن عيون القوم، فاختارا لذلك عبد الله بن أُرَيْقِط، وواعداه أن يوافيهما بعد ثلاث ليال عند «غار ثور».

غار ثور

وغار ثور كهف بأعلى جبل «ثـور»؛ وهـو جبـل عـال ذو قمتين، على ثلاثة أميال من جنوب مكة، فى طريق المتحدرِ منها إلى اليمن، يمشى السائر إليه نحـو سـاعتين فى طـريق لـين كثيف الرمال، ثم يصعد فيه صعودًا هينًا حتى يصل إلى قمته القـريبة؛ فإذا وصل إليها، مشى قليلاً فى طريق ممهد سـهل كأنـه بـرزخ؛ ثم يأخذ فى الصعود إلى القمة الأخرى، فى مُـرْتقى وعْـر شـديد الانزلاق، كثير المضايق والصخور، فلا يـزال كذلك يبـذل مـن جهده وقوته، ويستعين بكل خبرته وحِذْقه، حتى يصل إلى الغار عند القمة فيجده كهفًا ضيقًا لا تزيد مساحته على مترين ونصف متر، رابضًا تحت صخرة ضخمة تغشى جوفه بظلمة خفيفة؛ لـه فتحتان: فتحة ضيقة فى جانب منه، وأخـرى فى جـانب آخـر لا تزيد سعتها على نصف متر، وهى الـتى يسـتطيع الـداخل أن يدخل منها بغير مشقة كبيرة.

فتيان قريش يرصدون دار النبي

وفى تلك الليلة بات فتيان قـريش يـرصدون دار النـبى ﷺ ليقتلوه عند خروجه؛ فليس من عادة العرب أن يقتلـوا شـخصًا فى عُقْر داره. وبات على بن أبى طـالب فى فـراش النـبى ﷺ،

وتغطى بِبُردهِ الحضْرمِىّ الأخضر؛ وجعل القوم كلما نظروا من خصَاص الباب رأوا عليًّا، فظنوا أنه رسول الله فاطمأنوا.

فلما تنفس الصبح وانكشف الظلام، قام النائم عن فراشه، فإذا هو على بن أبى طالب؛ فجُنَّ جنونُ القوم وطار صوابهم، وأحدقوا بعلىّ ينهرونه ويتجاذبونه، ويسألونه عن محمد أين ذهب وأين اختفى؛ فيقول علىّ فى هدوء: «لا أدرى! أمرتموه بالخروج فخرج..» فجعلوا يضربونه ويَنُوشونه بأيديهم وعصيهم، ثم أخرجوه إلى المسجد فحبسوه هناك، واجتمع القوم عليه يحاولون بكل وسيلة أن يعرفوا منه مكان النبى فلا يستطيعون. فلما استيأسوا منه أطلقوه، وتفرقوا يبحثون فى كل مكان، ويُنقِّبون فى كل فج، ويسألون كل غاد ورائح، ويقطعون الأرض شرقًا وغربًا وشمالا وجنوبًا، ويتتبعون آثار الأقدام فى كل طريق. وخرج الغضب والغيظ بهم عن أطوارهم فجعلوا يتخبطون فيما يفعلون.

روى ابن إسحاق عن أسماء بنت أبى بكر أنها قالت: «لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأبو بكر رضى الله عنه، أتانا نفر من قريش فيهم أبو جهل بن هشام؛ فوقفوا على باب أبى بكر، فخرجت إليهم فقالوا: أين أبوك يا بنت أبى بكر؟ (قالت): قلت: لا أدرى والله أين أبى! (قالت): فرفع

أبو جهل يده - وكان فاحشًا خبيثًا - فلطم خدى لطمة طرح منها قُرْطى !».

لم يكن الفرار أمرًا سهلا

أما رسول الله ﷺ فقد فاتهم، وتسلل هو وأبو بكر فى جُنْح الظلام فاختفيا فى غار ثور؛ وحفظ الله رسوله من عيون القوم فلم يبصروه. على أن الفرار من هذا العدو المتربص الحانق، لم يكن أمرًا هينًا، ولم يكن الخروج فى تلك الليلة مأمون العواقب؛ فقد كان، صلى الله عليه وسلم، يعلم أن قريشًا سترصده بكل طريق، وستتبع أثره حيثما ذهب، فكان عليه أن يأخذ حِذْره فى كل خطوة.

قال ابن إسحاق: لما أجمع رسول الله، صلى الله عليه وسلم، الخروج، أتى أبا بكر بن أبى قحافة، فخرجا من خَوْخَة[1] لأبى بكر فى ظهر بيته، ثم عمدا إلى غار بجبل ثور فدخلاه، وأمر أبو بكر ابنه عبد الله بن أبى بكر، أن يتسمع لهما ما يقول الناس فيهما نهارًا، ثم يأتيهما إذا أمسى بما يكون فى ذلك اليوم من الخبر؛ وأمر عامر بن فُهَيرة - مولاه - أن يرعى غنمه نهارَه، ثم يُريحها عليهما، يأتيهما إذا أمسى فى الغار.

(١) الخوخة: باب صغير فى البوابة الكبيرة يدخل الناس منه ويخرجون.

وذكر صاحب الدر المنثور فيما رواه دِحْلان أنه، صلى الله عليه وسلم، مشى ليلة على أطراف أصابعه، لئلا يظهر أثر رجليه على الأرض، حتى حَفِيت قدماه؛ وأنه لم يُصِب الغار حتى تقطرت قدماه دما.

كذلك رُوى أن أبا بكر، رضى الله عنه، كان - وهما فى طريقهما إلى الغار - يمشى تارة خلف النبى وتارة بين يديه، وأن النبى، صلى الله عليه وسلم، سأله فى ذلك، فقال: «يا رسول الله، أذكر الطلَب فأمشى خلفك، وأذكر الرَّصدَ(1) فأمشى بين يديك».. وكان أبو بكر يبدى من مظاهر المحافظة والحرص على رسول الله، ما يدل على صدق إيمانه وعظيم إخلاصه وشدة محبته، وما يدل كذلك على مبلغ ما كان يحيط بهما من المخاوف والأخطار.

ونستطيع أن نتصور بعض ما كان فى هذه الرحلة من مصاعب ومخاوف، إذا تصورنا رجلا واحدًا قد وقفت له مدينة بأسرها تقاومه وتطارده، وقد أجمعت رأيها على الفتك به والخلاص منه، غير عابئة بما هنالك من قيود أو تقاليد. فكم يلاقى هذا الطريد الوحيد من عنت الفرار ومخاوفه، إذا أراد أن يفر بنفسه من هذا الحصار، وهو أينما تلفت وجد عدوًّا، وحيثما

(1) الطلب: من يطلب الشخص من ورائه. والرصد: من يترصد له من أمام.

توجه توقع خطرًا يهدد حياته ؟.. إذا استطعنا أن نتخيل هذه الصورة، تسنى لنا أن ندرك بعض ما عاناه الرسول ﷺ وصاحبه من العنت، وهو يحاول الخروج من مكة والوصول إلى الغار فى تلك الليلة. ولكن الله جلت قدرته حمى رسوله منهم، وطمس على أبصارهم فلم يبصروه ولم يعرفوا مكانه.

الرسول وصاحبه فى الغار

وظل رسول الله ﷺ هو وصاحبه فى الغار ثلاث ليال، يتسقطان أخبار القوم، ويرقبان ما يكون من حالهم فى حركتهم وسكونهم، وثورتهم وهدوئهم.

« وكان عبد الله بن أبى بكر يكون فى قريش نهارَه معهم، يسمع ما يأتمرون به، وما يقولون فى شأن رسول الله ﷺ وأبى بكر، ثم يأتيهما إذا أمسى فيخبرهما الخبر. وكان عامر بن فهيرة - مولى أبى بكر - يرعى نهارَه فى رُعْيَان أهل مكة، فإذا أمسى أراح عليهما غنمَ أبى بكر فاحتلبا وذبحا؛ فإذا غدا عبد الله ابن أبى بكر من عندهما إلى مكة، اتّبع عامرُ بن فهيرة أثـرَه بالغنم يُعَفِّى عليه.. حتى إذا مضت الثلاث وسكن عنهما الناس، أتاهما صاحبهما الذى استأجراه ببعيريهما وبعير له »[1].

---

(١) ابن إسحاق.

وقد أجمل ابن عباس مواقف هذه المرحلة من مراحل الهجرة فى تفسير قوله تعالى : ﴿وإذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذينَ كفروا لِيُثْبِتُوكَ أو يَقْتُلُوكَ أو يُخْرِجُوكَ، ويَمْكُرُونَ ويَمْكُر الله، والله خير الماكرين﴾[1] . . وذلك إذ يقول – فيما رواه عنه الإمام أحمد – : «تشاورت قريش ليلة بمكة، فقال بعضهم : إذا أصبح فأثبِتوه بالوَثاق – يريدون النبى صلى الله عليه وسلم – وقال بعضهم : بل اقتلوه. وقال بعضهم : بل أخرجوه. فأطلع الله نبيه على ذلك، فبات علىّ على فراش النبى، صلى الله عليه وسلم، وخرج النبى حتى لحق بالغار، وبات المشركون يحرسون عليًّا، يحسبونه النبى، صلى الله عليه وسلم. فلما أصبحوا ثاروا عليه، فلما رأوا عليًّا رد الله عليهم مكرهم، فقالوا : أين صاحبك يا هذا؟ فقال : لا أدرى! فاقتفَوا أثره. فلما بلغوا الجبل اختلط عليهم، فصعدوا الجبل فمروا بالغار، فرأوا نسج العنكبوت على بابه. فمكث فيه ثلاث ليال». قال ابن كثير : هذا إسناد حسن، وهو أحسن ما روى فى قصة الغار.

الرسول مطمئن إلى رعاية ربه

ومع ما كان فى هذه المرحلة العصيبة من مخاوف؛ فإن

---

(١) سورة الأنفال الآية ٣٠.

رسول الله ﷺ ظل ثابت الجأش مطمئن الخاطر، تغمره السكينة والطمأنينة، ويملأه اليقين بأن الله يرعاه ويحوطه، وأن قريشًا لن تنال منه منالا، مهما دبرت له من كيد، ومهما استعانت بما لها من الخبرة والقوة والمكانة. فقد رَوى الرواة أن فِتيان قريش لما وصلوا إلى الغار وسمع أبو بكر دَبيب أقدامهم إزاءه، اشتد خوف أبي بكر على حياة الرسول حتى بكى، وقال: «يا رسول الله، لو أن أحدهم نظر إلى موضع قدميه لأبصرنا!» فهدّأ رسول الله ﷺ من رَوْع أبي بكر. وقال له: «لا تحزن، إن الله معنا! ما ظَنُّك باثنين الله ثالثهما؟».

ولم تكد تمضى الثلاثة الأيام، حتى كانت قريش قد يئست من العثور على رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وأيقنت أنه قد أفلت من يديها، وأخذ فى طريقه إلى أصحابه بالمدينة؛ فكفت عن البحث عنه فى مكة وما حولها، ووجهت اهتمامها إلى طريق المدينة، فأرسلت بعض فتيانها إلى هناك، وأذاعت فى أهل السواحل أن من يأتيها بمحمد أسيرًا أو قتيلا فله مائة ناقة.

الهجرة إلى المدينة

بدأ النبى رحلته إلى المدينة حين يئست قريش من وجوده بمكة

لم تكن قريش تقدر قط أن محمدًا سَيُفْلِتُ من يديها، وأنها سُتخفق فى العثور عليه بعدما بذلت فى البحث عنه كل جهد ممكن. فقد أمضت الأيام الثلاثة الأولى من اختفائه وهى قائمة قاعدة، باحثة منقبة، قد أسهرت ليلَها، وأشقَتْ نهارها، وأَقَضّت مضاجعها، ودست أنوفها فى كل مكان تتشمم ريحه، وأرسلت خبراءها فى كل ناحية يتلمسون آثاره ويتنسمون أخباره.. ولكنها على رغم ذلك لم تظفر من جهودها بطائل. فلما انقضت الأيام الثلاثة وهى على هذه الحال من الثورة والاضطراب، ومن الجهد الدائب الخائب، استولى عليها اليأسُ وفَلَّ عزمها الإخفاق؛ فكفت عن البحث، وأيقنت أنه من المستحيل أن يكون قد بقى فى مكة حتى الآن.

وهذا ما قدّره رسول الله ﷺ وبنى عليه خطته؛ فإنه ظل

رابضًا فى الغار يرقب الحوادث عن كثب، حتى تبين له أن قريشًا قد يئست من وجوده بمكة، وأنها كفت عن طلبه وتَتَبُّعِه فيما حواليها. فلما أيقن أن قد هدأت العاصفة، وسكنت الثورة، ولاحت الفرصة للخروج، أخذ فى تنفيذ باقى خطته؛ فجاء الدليل فى ميعاده، ومعه راحلتاهما وراحلة أخرى قد أعدها لنفسه؛ وأخذ الجميع أهبتهم لرحلة طويلة شاقة.

قال ابن إسحاق: «فلما قرّب أبو بكر، رضى الله عنه، الراحلتين إلى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قدم له أفضلهما ثم قال: «اركب، فداك أبى وأمى!» فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «إنى لا أركب بعيرًا ليس لى». قال: «فهى لك يارسول الله، بأبى أنت وأمى!» قال: «لا، ولكن ما الثمن الذى ابتعتها به»؟ قال: «كذا وكذا». قال: «قد أخذتها به». قال: «هى لك يارسول الله».. فركبا وانطلقا، وأردف أبو بكر الصديق، رضى الله عنه، عامر بن فهيرة - مولاه - خلفه، ليخدمهما فى الطريق».

وكانت أسماء بنت أبى بكر قد أتتهما بسُفْرة من الطعام يَتَبَلَّغان بها فى سفرهما، قد وضعتها فى جراب؛ ولكن الوقت أعجلها أن تجعل للسفرة عِصامًا[1] تعلقها به فى الرَّحْل. فلما

(١) عصامًا: علاقة.

أرادت أن تعلقها، لم تجد غير نِطاقها الذى تشُدّ به وسطها، فشقته نصفين، فعلقت السفرة بشق منه وتنطّقت هى بالشّق الآخر؛ فسُميت «ذات النطاقين» من أجل ذلك.

النبى يلق على مكة نظرة وداع حارة

وانطلق الركب يسير باسم الله حين أرخى الليل سدوله؛ وكان القمر هلالا فى مستهل ربيع الأول، فلم يلبث أن اختفى بُعَيْد الغروب، وكسا الظلام مناظر البادية فحجبها عن العيون. وحين أخذ الركب وجْهَتَه إلى المدينة، نظر رسول الله ﷺ إلى مكة نظرة وداع حارة، ثم قال: «والله إنى لأخرج منك، وإنى لأعلم أنك أحب أرض الله إلى الله، وأكرمها على الله.. ولولا أن أهلك أخرجونى منك ما خرجت».. ! وفى رواية أنه قال: «والله إنك لأحب أرض الله إلىَّ، وأحب أرض الله إلى الله.. ولولا أن أهلك أخرجونى منك قهرًا ما خرجت».. ! وفى رواية أخرى أنه قال: «اللهم إنك تعلم أنهم أخرجونى من أحب البلاد إلىّ، فأسكنى أحب البلاد إليك».. ! ومهما تختلف الروايات، فإنها كلها مجمعة على أنه كان وداعًا حارًّا، يقطر حبًّا وحنانًا إلى هذا الوطن الحبيب، ويفيض حسرة وأسى على فراقه.

الدليل يتحرى مواضع الأمان فى الطريق

ولما فصلت العير، جعل الدليل يتحرى مواضع الأمان، ويبتعد عن مسالك الخوف جهده، فلم يسلك الطريق المألوف مُصْعِدًا إلى الشمال، بل سار منحدرًا إلى الجنوب أسفلَ مكة، موليًا وجهه نحو اليمن، ثم توجه مُشَرِّقًا إلى تِهامة، حتى إذا اقترب من شاطئ البحر وبعد عن الطريق المألوف، اتجه شمالا فى محاذاة الشاطئ، وهو حريصٌ أشد الحرص على أن يبتعد عن العيون ما استطاع.

ويقول ابن سعد فى الطبقات: «إن عبد الله بن أريقط أخذ بهم فى السير وهو يرتجز». ولعل هذا كان نوعًا من التضليل، أريد به ألا يَفْطَن إليهم أحد من القوم؛ فإن الذى يرتجز ويعلن عن نفسه فى السير، لا يمكن أن يكون هاربًا. وقد استمروا يسيرون طوال ليلتهم وشطرًا من النهار حتى تعبوا.

روى البخاى بسنده عن أبى بكر، رضى الله عنه، قال: «أُخِذ علينا بالرَّصَد[1] فخرجنا ليلا، فأحْثَثْنا[2] ليلتَنَا ويومنَا حتى قام قائم الظهيرة، ثم رُفِعَت[3] لنا صخرةٌ فأتيناها ولها شيء من

(١) أحاط بنا الرقباء والعيون.
(٢) فأحثثنا: أسرعنا.
(٣) رفعت: ظهرت لنا.

الظل. (قال) : ففرشت لرسول الله فروة معى، ثم اضطجع عليها، صلى الله عليه وسلم، فانطلقت أنْفُضُ[1] ما حولها؛ فإذا أنا براع قد أقبل فى غُنَيْمة[2]، يريد من الصخرة مثل الذى أردنا فسألته : لمن أنت يا غلام؟ فقال : أنا لفلان. فقلت له : هل فى غنمك من لبن؟ قال : نعم. قلت له : هل أنت حالب؟ قال : نعم. فأخذ شاة من غنمه، فقلت له : انْفُض الضَّرع. (قال) : فحلب كُثْبَة[3] من لبن. ومعى إدَاوَةٌ[4] من ماء عليها خِرْقة، قد وَرَّأتها[5] لرسول الله، صلى الله عليه وسلم؛ فصببت على اللبن حتى بَرَد أسفله، ثم أتيت به النبى، صلى الله عليه وسلم، فقلت : اشرب يارسول الله. فشرب، صلى الله عليه وسلم، حتى، رضيت. ثم ارتحلنا والطَّلَبُ فى أثَرنا».

قريش تفرض مكافأة مغرية لمن يأتيها بمحمد

وكانت قريش - حين فاتها رسول الله ﷺ - قد جعلت مائة ناقة لمن يأتيها به أسيرًا أو قتيلا، وأرسلت بذلك فى أهل السواحل؛ فأغْرَى ذلك ذوى المطامع من أهل البادية، بتتبع رسول الله، صلى الله عليه وسلم. وكان من هؤلاء سُرَاقة

---

(١) انفض : أبحث وأتقصى.
(٢) غنيمة : غنم قليلة.
(٣) كثبة : قليلا.
(٤) إداوة : سقاء للماء.
(٥) ورأتها : شددتها بها وربطتها عليها.

ابن مالك بن جُعْشَم - رجل من بنى مُـدْلج النـازلين بقُـدَيْد، بالقرب من شواطئ رابغ - وكان قد علم أن نفرًا ثلاثة قد مروا على رواحلهم بقرب الشاطئ؛ فـاعتقد أنهـم محمـد وأصـحابه، فتتبع أثرهم يريد أن يأتى بهم قريشًا طمعًا فى الجائزة.

وقد روى البخارى بسنده عن ابن شهاب ما حـدث سراقـة عن نفسه، فيما كان من أمره ذاك، فقال: «جاءنا رسـل كفـار قريش، يجعلون فى رسول الله وأبى بكر، ديـةَ كلٍّ واحـد منهما، لمن قتله أو أسره. فبينا أنا فى مجلس مـن مجـالس قـومى بـنى مُدْلج إذ أقبل رجل منهم حتى قام علينا ونحن جلوس، فقـال: يا سراقة، إنى رأيت آنفًا أسْوِدَةً[1] بـالساحل، أُرَاهـا[2] محمـدًا وأصحابه. قال سراقة: فعرفت أنهم هـم. فقلـت لـه: إنهـم ليسوا بهم؛ ولكنك رأيت فـلانًا وفـلانًا انـطلقوا بـأعيننا[3]. ثم لبثت فى المجلس ساعة، ثم قمت فأمرت جاريتى أن تَخْرُج بفرسى - وهى من وراء أكمـة - فتحبسـهَا علىّ. وأخـذت رمحـى فخرجت به من ظهـر البيـت، فخـططت بـزُجِّه[4] فى الأرض وخَفَضْت عالِيَه، حتى أتيت فرسى فـركبتها، فـدفعتها فقـرَّت بى حتى دنوت منهم؛ فعثَرت بى فـرسى فخَـرَرْتُ عنهـا، فقمـت

---

(١) أسودة: أشباحًا سوداء.
(٢) أراها: أظنها.
(٣) بأعيننا: على مشهد منا.
(٤) الزج: الحديدة فى أسفل الرمح.

فأهْوَيْت يدى إلى كنانتى[1] فاستخرجت منها الأزلام، فاستقسمت بها : أضرهم أم لا ؟ فخرج الذى أكره؛ فركبت فرسى وعصيت الأزلام. فجعل فرسى يُقَرِّب بى، حتى إذا سمعت قراءة رسول الله - صلى الله عليه وسلم، وهو لا يلتفت وأبو بكر يكثر الالتفات - ساخت يدا فرسى فى الأرض حتى بلغتا الركبتين، فَخَرَرْت عنها فأهْوَيت؛ ثم زجرتها فنهضت، فلم تكد تخرج يديها.. فلما استوت قائمة، إذا لأثَرِ يديها غبار ساطع فى السماء مثل الدخان؛ فاستقسمت بالأزلام فخرج الذى أكره، فناديتهم بالأمان فوقفوا، فركبت فرسى حتى جئتهم. ووقع فى نفسى حينَ لقيتُ ما لقيت من الحبس عنهم، أن سيظهر أمر رسول الله، صلى الله عليه وسلم؛ فقلت له : إن قومك قد جعلوا فيك الدية؛ وأخبرتهم أخبار ما يريد الناس بهم؛ وعرضت عليهم الزاد والمتاع، فلم يَرُدَّانى، ولم يسألانى، إلا أن قالا : أخْفِ عنا.. فسألته أن يكتب لى كتاب أمْن؛ فأمر عامر بن فهيرة، فكتب لى فى رقُعة من أدم. ثم مضى رسول الله، صلى الله عليه وسلم ».

(١) الكنانة : جعبة السهام.

أم معبد

وانطلق الركب يسير إلى غايته، والمَطايا تَخُبُّ بهم وتَضَع[1] وهم ممعنون فى غمار الصحراء المترامية، صابرون على حرها المحرق وقيظها الملتهب؛ مستسلمون لكل ما يجرى به القضاء، مؤمنون بأن القضاء لا يجرى إلا بخير. وكلما أرهقهم السير نزلوا منزلا فاستراحوا، وتلمسوا من الحىّ المقيمين عند منزلِهم، ما عسى أن يكون لديهم من طعام أو شراب؛ حتى مروا فى طريقهم بأم مَعْبَد الخزاعيَّة. وهى أعرابية كريمة، كانت تجلس أمام خيمتها مجلس الرجال، فتُطعم وتَسقِى من يمر بها من السيارة. فلما نزلوا عندها سألوها تمرًا أو لحمًا يشترون منه، فلم يصيبوا عندها شيئًا، وقالت وهى تبدى أسفها لهم: «والله لو كان عندنا شىء ما أعوزكم القِرَى وما كنتم إذن بحاجة إلى أن تسألوا شيئًا أو تدفعوا ثمنًا».. وكانت السنة مجدبة، والبادية فى قحط شديد.

قال ابن سعد روايةً عن أبى معبد الخزاعى: «فنظر رسول الله ﷺ إلى شاة فى كِسْر الخيمة، فقال: «ما هذه الشاة يا أم معبد»؟ قالت: «هذه شاة خلَّفها الجَهْدُ[2] عن الغنم». فقال:

---

(١) تخبّ: تسرع وتبطئ.

(٢) الجهد: الضعف والإعياء.

« هل بها من لبن ؟» قالت : « هى أجهد من ذلك » قال : « أتأذنين لى أن أحلُبها » ؟ قالت : « نعم - بأبى أنت وأمى - إن رأيت بها حَلَبًا » ! فدعا، صلى الله عليه وسلم، بالشاة، فمسح ضرعها وذكر اسم الله، وقال : « اللهم بارك لها فى شاتها » ! (قال) : فَتَفَاجَّتْ[1] ودَرَّت واجْتَرَّت ؛ فدعا بإناء يُرْبِض الرَّهْط[2]، فحلب فيه ثَجًّا[3] حتى غَلَبه الثُّمال[4] فسقاها فشربت حتى رَوِيت، وسقى أصحابه حتى رَوَوْا، وشرب صلى الله عليه وسلم آخرَهم، وقال : « ساقى القوم آخرهُم ». ثم حلب فيه ثانيًا عَوْدًا على بَدْء، فغادره عندها ثم ارتحلوا عنها. فقَلَّما لَبِث أن جاء زوجها أبو معبد يسوق أعْنُزًا عجافًا ؛ فلما رأى اللبن عجب وقال : من أين لكم هذا، والشاةُ عازِبَةٌ[1] ولا حَلُوبَةَ فى البيت ؟ قالت : لا والله، إلا أنه مرّ بنا رجل مبارك، كان من حديثه كيت وكيت. قال : والله إنى لأُرَاه صاحب قريش الذى يُطْلَب. صفيه لى يا أم معبد »..

فجعلت أم معبد تصف له ما بهرها منه، صلى الله عليه وسلم، من كمال الطلعة وجمال الهيئة، ووقار السَّمْت وعظمة

(١) فتفاجت : فتحت ما بين أرجلها ودرت باللبن.
(٢) يربض : يشبع الجماعة.
(٣) فجًا : لبنًا غزيرًا.
(٤) الثمال : الرغوة.
(٥) عازبة : غائبة عن البيت.

الخُلُق، وسلامة المنطق وعذوبة الحديث، وسماحة النفس وطلاقة الوجه، وشدة الهيبة وجلالة المظهر.

قال : « هذا والله صاحبُ قريش، الذى ذُكر لنا من أمره ما ذُكر! ولو كنت وافقتُه يا أم معبد، لالتمست أن أصحبه. ولأفعلنَّ إن وجدت إلى ذلك سبيلا ».. !

ويقول الرواة : إن فتيان قريش مروا بأم معبد، فسألوها عن رسول الله ﷺ فأشفقت عليه منهم؛ فتعاجمت[1] عليهم وقالت لهم : « إنكم تسألون عن شيء ما سمعت به قبل عامى هذا ».

الأنصار يترقبون مقدم النبي

وكان المسلمون بالمدينة قد سمعوا بخروج رسول الله ﷺ من مكة؛ فكانوا يتحرقون شوقًا إلى لقائه، ويخرجون فى صبح كل يوم يترقبونه فى بعض الطريق، حتى يؤذيهم الحر وتحرقهم الشمس، فيعودوا إلى منازلهم.

روى ابن إسحاق عن عبد الرحمن بن عُوَيْم قال : « حدثنى رجال من قومى من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، قالوا : لما سمعنا بمَخرج رسول الله ﷺ من مكة، وتَوكَّفنا[2] قدومه، كنا نخرج إذا صلينا الصبح إلى ظاهر حَرَّتنا، ننتظر

(١) تعاجمت : تظاهرت بجهل ما يسألونها عنه.

(٢) توكفنا : توقعنا.

رسول الله، صلى الله عليه وسلم؛ فوالله ما نبرح حتى تغلبنا الشمس على الظلال، فإذا لم نجد ظلا دخلنا؛ وذلك فى أيام حارة. حتى إذا كان اليوم الذى قدم فيه رسول الله، صلى الله عليه وسلم، جلسنا كما كنا نجلس، حتى إذا لم يبق ظل دخلنا بيوتنا. وقدم صلى الله عليه وسلم حين دخلنا البيوت، فكان أولَ من رآه رجل من اليهود، وقد رأى ما كنا نصنع، وأنا ننتظر قدوم رسول الله ﷺ علينا؛ فصرخ بأعلى صوته: «يابنى قَيْلَة[1] هذا جَدُّكم[2] قد جاء..!» (قال): فخرجنا إلى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وهو فى ظل نخلة، ومعه أبو بكر، رضى الله عنه، فى مثل سِنّه؛ وأكثُرنا لم يكن رأى رسول الله قبل ذلك. وركبه الناس[3] وما يعرفونه من أبى بكر، حتى زال الظلُّ عن رسول الله ﷺ فقام أبو بكر فأظله بردائه، فعرفناه عند ذلك»..

النبى فى قباء

وأكثُر الرواة على أن رسول الله ﷺ بلغ المدينة يوم الاثنين، لاثنى عشرة ليلة خلت من ربيع الأول، للسنة الرابعة عشرة من

---

(١) بنى قيلة: كانت هذه كنية العرب فى المدينة.

(٢) جدكم: حظكم وطالعكم.

(٣) وركبه الناس: تزاحموا عليه.

البَعثة، الموافق ٢٨ من يونية سنة ٦٦٢ من الميلاد، وأنه توجه إلى قُباء[١]، فنزل على كُلْثوم بن الهِدْم، شيخ بنى عمرو ابن عوف؛ وأنه أقام فى بنى عمرو بن عوف يوم الاثنين، ويوم الثلاثاء، ويوم الأربعاء، ويوم الخميس؛ ثم خرج فى ضُحى يوم الجمعة إلى المدينة.

وكان أول عمل قام به رسول الله ﷺ فى قباء، أن أسس مسجدًا هناك، فكان أول مسجد بنى فى الإسلام. وقد عمل فيه صلى الله عليه وسلم بيده، وشارك أصحابه فى حمل الحجارة والصخور، حتى كان يبدو عليه الجهد. وقد رغب إليه أصحابه أن يَكْفُوه ذلك بأنفسهم، فأبى إلا أن يكون واحدًا منهم.

روى الطَّبَرانى بسند رجالُه ثِقات، عن الشَّمُوس بنت النّعمان، رضى الله عنها، قالت: «نظرتُ إلى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، حين قدِم، فنزل وأسس المسجد – مسجد قباء – فرأيته يأخذ الحجر والصخرة حتى يُصْهِرَه[٢] الحجر؛ فيأتى الرجل من أصحابه فيقول: «يارسول الله، بأبى أنت وأمى، تعطينى أكْفِكَ»! فيقول: «لا، خذ مثله».. حتى أسسه».

ويقول كثير من المفسرين: إن فى هذا المسجد نزل قول الله

(١) قباء: ضاحية فى جنوب المدينة على بعد ثلاثة أميال منها.
(٢) لعل المراد أن الحجر لضخامته كان يغالبه ويجذبه إليه من ثقله.

تعالى : ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ على التقوَى من أوّل يوم أحقُّ أن تقوم فيه؛ فيه رجالٌ يحبُّون أن يَتَطَهَّروا، والله يحبُّ المطهِّرين﴾[١].

المدينة تحتفل بمقدم النبي

وكان يوم دخول رسول الله المدينة يومًا حافلا، لم تر المدينة يومًا أشد فرحًا وابتهاجًا منه؛ فقد ازدانت المدينة وأشرقت جوانبها بالبهجة والسرور؛ ولبس الناس أحسن ملابسهم كأنهم فى يوم عيد؛ ووقفت رباتُ الخدور من النساء على سطوح المنازل، يَسْتَشْرِفْن رسولَ الله، صلى الله عليه وسلم، وهَلَّل الصبيان يصيحون فى فرح وابتهاج : «جاء رسول الله. . ! جاء رسول الله. . !» وجعل الإماءُ والجوارى يُنْشِدن ويغنِّين ويضربن بالدفوف، والحبشة تلعب بحرابها، فرحًا بقدومه، صلى الله عليه وسلم.

روى الإمام أحمد بسنده عن أنس بن مالك قال : «إنى لأسعى فى الغلمان يقولن : «جاء محمد!» فأسعى ولا أرى شيئًا. . ثم يقولون : «جاء محمد»! فأسعى ولا أرى شيئًا. . حتى جاء رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وصاحبه أبو بكر، فَكَمنا فى بعض خِراب المدينة، ثم بعثا رجلا من أهل البادية

(١) سورة التوبة الآية ١٠٨.

يُؤْذِن بها الأنصار؛ فاستقبلهما زهاءُ خمسمائة من الأنصار حتى انتهوْا إليهما؛ فقالت الأنصار: انطلقا آمِنَيْن مُطَاعَيْن، فأقبل رسول الله وصاحبه بين أظهُرهم، فخرج أهل المدينة، حتى إن العَوَاتق[1] لَفَوق البيوت يتراءَيْنَه، يقلن: «أيُّهم هو؟ أيهم هو»؟.. فما رأينا منظرًا شبيهًا به».

وجاء فى الصحيحين بسند عن أبى بكر قال: وخرج الناس حين قدمنا المدينة فى الطرق وعلى البيوت، والغلمان والخدم يقولون: «الله أكبر، جاء رسول الله..! الله أكبر، جاء محمد..! الله أكبر، جاء محمد..! الله أكبر، جاء رسول الله..!».

وروى عن عائشة قالت: لما قدم رسول الله، صلى الله عليه وسلم، المدينة جعل النساء والصبيان والوَلائد يقلن:

طلع البدرُ علينا من ثَنِيَّات الوداع[2]
وجب الشكر علينا ما دعا لله داع
أيّها المبعُوث فينا جئت بالأمر المطاع

ولما ارتفع النهار، ركب رسول الله ﷺ ناقته القصْواء، فى موكِب حافل، والمسلمون يحيطون به مشاة وركبانًا، وقد تقلدوا

---

(١) العواتق: الصبايا.

(٢) ثنايا الوداع: منعطف قبل المدينة كانوا يودعون عنده المسافرين.

سيوفهم، وتَحلَّوا بأحسن ملابسهم، وعلا وجوهَهم الزهوُ والبشرُ والابتهاج بمقْدَم رسول الله، صلى الله عليه وسلم. وقد بلغ من حرصهم على كرامة رسول الله وتعظيمه، أن كانوا يتزاحمون على زمام ناقته، حتى ينازع أحدُهم صاحبه فى الوصول إليه والتبرك به.

وتوجه صلى الله عليه وسلم نحو المدينة؛ فجعل لا يمر بدار من دور الأنصار إلا اعترضوا طريقه وقالوا: «هَلُمَّ يا رسول الله إلى القوة والمنعة والثروة!» فيبتسم صلى الله عليه وسلم شاكرًا، ويدعو لهم بخير، ثم يقول وهو يشير إلى ناقته: «خلُّوا سبيلها فإنها مأمورة».

«وقد كان فى المدينة دور كثيرة تبلغ تسعًا، كل دار مَحِلَّةٌ مستقلة بمساكِنها ونخيلها وزروعها وأهلها، وكل قبيلة من قبائلهم قد اجتمعوا فى مِحلتهم فهى كالقرى المتلاصقة»[1].

أول خطبة لرسول الله فى المدينة

فلما وصل، صلى الله عليه وسلم، إلى دار بنى سالم ابن عوف، أدركته صلاة الجمعة، فصلاها هنالك فى واديهم بمن كان معه من المسلمين؛ فكانت أول جمعة أقامها، صلى الله عليه

---

(١) ابن كثير.

وسلم، فى الإسلام. وكانت أولَ خطبة خطبها أن قام فيهم، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال: «أما بعد، أيها الناس، فقدموا لأنفسكم، تَعَلَّمُنّ[1] - والله - ليُصْعَقن أحدُكم[2] ثم لَيَدَعَن غنَمه ليس لها راع؛ ليقولَن له ربه، ليس له تَرْجُمان ولا حاجب يحجبه دونه: ألم يأتك رسولى فبلغك، وآتيتك مالا وأفضلت عليك؟ فما قدمت لنفسك؟ فليَنظُرَن يمينًا وشمالا فلا يرى شيئًا، ثم لينظرن قُدّامَهُ فلا يرى غير جهنم.. فمن استطاع أن يقِيَ وجهه من النار ولو بشِقٍّ من تمرة فليفعل؛ ومن لم يجد فبكلمة طيبة، فإن بها تُجزَى الحسنةُ عشرَ أمثالها إلى سبعمائة ضِعْف. والسلام عليكم وعلى رسول الله ورحمة الله وبركاته».

الناقة تسير حتى تبرك فى موضع المسجد

ثم ركب صلى الله عليه وسلم ناقته؛ فما زالت تسير وقد أرخى لها زمامها، حتى بركت به فى مكان مسجده؛ وكان مَرْبِدًا[3] لغلامين يتيمين من بنى النجار، عند دار أبى أيوب: خالد بن زيد الأنصارى؛ فنزل عنها رسول الله، صلى الله عليه

---

(١) تعلمن: اعلموا.

(٢) يصعقن: الصعق هنا كناية عن الموت حين يأتى مفاجئًا لابن آدم.

(٣) المربد: الجرن.

وسلم، وقال: ﴿رب أنزلنى مُنزلا مُبَاركًا وأنْتَ خَيرُ المُنْزِلِين﴾[1].. قال ذلك أربع مرات. وأخذ الذى كان يأخذه عند الوحى؛ فلما سُرِّى عنه قال: «هذا إن شاء الله يكون المنزل».. وأمر أن يُحط رحلُه؛ ثم قال: «أى بيوت أهلنا أقرب»؟ فقال أبو أيوب: «أنا يا نبى الله؛ هذه دارى، وهذا بابى..!» قال: «فانطلقْ فهيئ لنا مَقِيلا»[2] فذهب فهيأه ثم جاء فقال: «يا رسول الله، قد هيأت مقيلا. قوما على بركة الله فقِيلا».

نزل النبي على أبي أيوب حتى بنى مسجده ومساكنه

ونزل رسول الله، صلى الله عليه وسلم، على أبى أيوب، فأقام عنده حتى بنى مسجده ومساكنه؛ وجعلت الهدايا من الطعام والشراب تتوارد على رسول الله وهو فى دار أبى أيوب. وكانت أولَ هدية أهديت إليه حين نزل قصعةٌ جاء بها زيد ابن ثابت، فيها خبز مَثْرودٌ بلبن وسمن؛ فقدمها إلى رسول الله ﷺ وهو يقول: «أرسلت بهذه القصعة أمى». فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «بارك الله فيك وفى أمك»! ودعا أصحابه فأكلوا. ثم جاءت قصعة سعد بن عُبادة بها ثريد

(١) سورة المؤمنون الآية ٢٩.
(٢) مقيلا: مكانًا نقيل فيه.

وعُرَاق لحم[1]. وجعل بنو النجار يتناوبون حمل الطعام إليه طول مُقامه فى دار أبى أيوب؛ فما كانت من ليلة إلا وعلى باب رسول الله ﷺ الثلاثةُ يحملون الطعام، وما كانت تُخطئه جَفْنةُ سعد بن عبادة وجفنة أسعد بن زُرارة كل ليلة.

وأقام رسول الله ﷺ فى دار أبى أيوب سبعة أشهر - وقيل : نحو سنة - حتى بنى مسجده ومساكنه، ونزل معه أسامة ابن زيد. وقيل : إن عليًّ بن أبى طالب نزل معه كذلك؛ وكان قد قدم من مكة على رسول الله ﷺ وهو لا يزال بقُباء، بعد أن أدى الودائع عن رسول الله إلى أصحابها؛ ثم خرج من مكة ماشيًا، يسير بالليل ويختفى بالنهار، حتى تورَّمت قدماه. فلما رآه صلى الله عليه وسلم اعتنقه وبكى، رحمةً لما بقدميه من الورم، ثم أمَرّ عليهما يده الشريفة فشُفيتا بإذن الله، فلم يشتك منهما بعد ذلك. أما أبو بكر فقد نزل بالسُّنْح على خُبَيْب بن إسَاف.

الرسول يبعث فى طلب أهله

قال ابن سعد : «وبعث رسول الله مولاه زيد بن حارثة وأبا رافع إلى مكة، وأعطاهما بعيرين وخمسمائة درهم؛ فقدما عليه بفاطمة وأم كلثوم ابنتى رسول الله ﷺ، وسودة بنت زمعة

(١) عراق لحم : عظم عليه بقايا من اللحم. قال فى اللسان : ولحمها من أطيب اللحمان عندهم.

زوجته، وكانت رُقَيَّة قد هاجرت مع زوجها عثمان بن عفان قبل ذلك. وحبَس أبو العاص بن الربيع امرأته زينب بنت رسول الله، صلى الله عليه وسلم. وحمل زيد بن حارثة امرأته أم أيمن مع ابنها أسامة، وخرج معهم عبد الله بن أبي بكر بعيال أبي بكر وفيهم عائشة، فقدموا المدينة، فأنزلهم في بيت حارثة ابن النعمان».

وهكذا أخذ رسول الله ﷺ يرتب فى المدينة شئونه وشئون أصحابه، وينشئ المجتمع المثالى الفاضل، على قواعدَ من الحب والإخاء، والعدل والمساواة، والتكافل والتعاون، والتضحية والإيثار.. وهى المبادئ التى وضعها الإسلام للمجتمع الصالح؛ ليعيش الناس فى كل زمان ومكان إخوة متعاونين، يسودهم الوئام، ويظللهم الأمن والسلام.

المجتمع الإسلامى

بدأ فى المدينة عهد الأمن والاستقرار
فأخذ النبي يضع قواعد المجتمع الصالح

كانت الحفاوة التى استُقبِل بها رسول الله ﷺ فى المدينة مظهرًا جديدًا، يختلف كل الاختلاف عن المظهر الذى كان يراه فى مكة، فمقدار ما كان من البغض والاستهانة هناك فى مكة، كان من الحب والإكبار هنا فى المدينة، فأيقن صلى الله عليه وسلم أن الله قد أذن لدينه بالنصر، وأن العقيدة التى ظل يضع قواعدها ثلاثة عشر عامًا، على أساس الإيمان الصادق بالله وحده، قد آن لها أن تؤتى ثمارها، وأن تظهر آثارها فى الفرد والجماعة عملا صالحًا ينقطع به الفساد ويعم الصلاح، ويمَّحى به الشر وينتشر الخير. فليس الشأن فى العقيدة أن تكون فكرة تستقر فى طوايا النفس، وتكمن فى خفايا الضمير فحسب؛ إنما هى فكرة تهيمن على النفس فتملكها من جميع أقطارها، حتى يندفع صاحبها إلى العمل بها فى ظاهر أمره وباطنه، وفى جليله وحقيره، وفيما يتصل بشئون نفسه أو بشئون غيره؛ سواء فى ذلك

قريب الناس وبعيدهم ومن يشاركه فى العقيدة أو يخالفه فيها. وليس للعقيدة قيمة قط إذا لم يكن صاحب العقيدة ترجمةً عملية لها، فى كل ما يأتى وما يدع، وما يخفى وما يعلن.

لقد انتهى عهد الاضطراب والخوف فى مكة، وبدأ عهد الاستقرار والأمن فى المدينة؛ فوجب أن يوضع المنهج العملى للمجتمع الجديد، وأن ترسم له خطوط السير فى الطريق السوى، حتى يأمن الزلل، ويتقى العِثار، ويصل إلى الغاية المنشودة. وما الغاية المنشودة إلا أن يعيش الناس فى هذه الحياة عيشة فاضلة، تلائم كرامتهم، وتناسب منزلتهم بين الخلائق؛ فقد كرم الله بنى آدم وفضلهم على كثير ممن خلق، وجعلهم خلفاءه فى الأرض، وسخر لهم كل ما فيها ليَعْمُروها بالخير والصلاح؛ وجعل لهم أجلا لا ريب فيه، تنتهى إليه مدتهم فى الحياة الدنيا، فينتقلون إلى حياة أخرى أكرم وأسمى.. «ولقد رغَّب الله بنى آدم كل الترغيب فى الحياة الفاضلة الرفيعة، وزهدهم كل التزهيد فى الحياة التافهة الوضيعة، وحذرهم سوء المصير إذا حادوا عن الطريق، وانحرفوا مع الأهواء والشهوات»[1].

(١) فقه السيرة.

الحياة الصالحة كما يريدها الإسلام

هذه الغاية التي ينشدها الإسلام، والهدف الذى يرمى إليه من الحياة، فهو لا يريدها حياة كيفما كانت، إنما يريدها حياة سامية تليق ببنى الإنسان، وتربأ بهم عن الهبوط إلى مستوى الحيوان الأعجم، الذى تحكمه شهواته وغرائزه، فيندفع معها بلا إرادة ولا فكر ولا نظر فى العواقب.. يريدها حياة وحدة وارتباط وتآلف، يدين الناس فيها بدين واحد، ويعبدون ربًّا واحدًا، ويسكنون وطنًا واحدًا، هو هذه الأرض التى سخرها لهم، ليعيشوا عليها إخوة متراحمين، مَثلهم فى توادهم وتراحمهم «كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى».. يريدها حياة فاضلة كريمة، أساسها التآخى، ومظهرها التراحم، وغايتها السلام.

وعلى هذا الأساس أخذ رسول الله ﷺ يبنى المجتمع الإسلامى الجديد ويقيمْ أركانه؛ وكانت الدعائم التى ركز عليها هذا البناء، هى تنظيم الصلات التى تحيط بالمسلم، من جميع نواحيه، وهى صلة المسلم بالله وصلة المسلم بالمسلم، وصلة المسلم بغير المسلم.

صلة المسلم بالله أساسها العبودية الخالصة له وحده

فأما صلة المسلم بالله، فهى صلة العبودية الخالصة، التى تقوم على إخلاص الدين له وحده لا شريك له، والاعتقاد بأنه هو رب العالمين؛ وأنه هو الإله الحق، الذى يخلق ويرزق، ويحيى ويميت، وينفع ويضر، وأنه لا إله غيره تعنو له الوجوه، وتخشع له القلوب، وتتوجه له الأنفس.. وهى صلة مباشرة بين العبد وربه، لا سلطان لأحد عليها، ولا وساطة لأحد فيها؛ فإذا توطدت هذه الصلة بين العبد وربه، كان أول مظاهرها ألا يَذِل إلاّ له، ولا يستعين إلا به، ولا يعمل إلا ابتغاء رضوانه.

الصلاة مظهر الصلة بين العبد وربه

ومن هنا كانت الصلاة أول ما فرض من فرائض الإسلام، لأنها أول مظاهر التدين، وأقوى وسائل الاتصال بين العبد وربه فإن وقوف العبد بين يدى مولاه خاشعًا متذللاً، متجردًا من كل معانى الحول والقوة، يدعوه ويناجيه، ويستعينه ويستهديه، موقنًا أنه هو وحده مصدر النعم، وواهب القوى، ومالك الأمر فى الدنيا وفى الآخرة.. إن وقوفه هذا، على هذه الحال من الضراعة والخشوع، ومن التجرد والشعور بالضعف، ومن التذلل

والابتهال فى طلب المعونة.. هو لُبّ الدين وحقيقته، وهو سر العبودية وجوهرها.

ومن أجل هذا كانت الصلاة عماد الدين، وكانت المحافظة عليها واجبة فى السفر والإقامة، وفى الأمن والخوف، وفى الصحة والمرض، وكان تكرارها خمس مرات فى اليوم والليلة توثيقًا لهذه الصلة.

نعم، فإن الإنسان معرض فى حياته لكثير من الصعاب؛ وكثيرًا ما تحول قوى الشر بينه وبين ما يبتغيه من الخير، وكثيرًا ما تضطره ضرورات العيش إلى أن يحيد عن الطريق السوى، وكثيرًا ما تخدعه مغريات الحياة الدنيا فيستجيب لها ويستمرئ لذائذها. والإنسان بطبعه ضعيف، لا يستطيع وحده أن يقاوم عناصر الشر وهى كثيرة جذابة؛ فإذا لجأ إلى ربه، ووقف بين يديه متضرعًا يستمد منه الحول والقوة، وجد منه العون والحماية، وتضاءلت أمامه القوى مهما عظمت، وانهزمت له عناصر الشر مهما كثرت. وكان رسول الله، صلى الله عليه وسلم، إذا حَزَبه أمر[1] فزع إلى الصلاة؛ ولعل هذا هو مَرْمَى قوله تعالى: ﴿واستعينوا بالصبر والصلاة﴾[2].

---

(١) حزبه أمر: اشتد به أمر أو أصابه غم.

(٢) سورة البقرة الآية ٤٥.

وفى الصلا تزكية للنفس وتطهير مستمر، لأنها اتصال دائم بالله عز وجل. ومتى كان العبد دائم الصلة بربه، فقد أصبح أكثر خشية له من سواه، وأكثر حرصًا على طاعته، وأشد بعدًا عن مخالفته؛ فإذا ما خدعه الشيطان فأقدم على ارتكاب إثم، تذكر أنه بعد ساعة أو ساعتين سيقف بين يدى ربه، الذى يعلم السر وأخفى، فيستحيى أن يقف بين يديه وهو آثم، فيسارع إلى الاستغفار والتوبة؛ فلا تحضُره الصلاة إلا وقد رجع إلى الله تائبًا منيبًا: ﴿إن الذين اتقوا إذا مسَّهم طائفٌ من الشيطان تَذكروا فإذا هم مُبصِرون﴾[1]؛ ولعل هذا هو معنى قوله تعالى: ﴿إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر﴾[2] وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم، يفسر هذا لأصحابه بقوله: «أرأيتم لو أن نهرًا بباب أحدكم، يغتسل منه كل يوم خمس مرات.. هل يبقى من دَرَنه شيء»؟ قالوا: لا يبقى من دَرَنه شيء. قال: «فكذلك مَثَلُ الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا».

والصلاة لقاءُ محبة وأنس بين العبد وربه، يفرح به المؤمن الصادق كما يفرح الحبيب بلقاء الحبيب، وتهيم أشواقُه إليه

(١) سورة الأعراف الآية ٢٠١.
(٢) سورة العنكبوت الآية ٤٥.

فلا يزال يسعى له ويستزيد منه. ولن يدرك هذه الحقيقة إلا من غَمَر الإيمانُ الصادق جوانب نفسه، حتى صَفَتْ روحُه، ورقّت حواشيه، وشَفّ وجدانه؛ فانكشفت له صورة من جلال الله وكماله، فامتلأ بحبه قلبه، فاتخذ الصلاة وسيلة إلى لقائه، كلما دفعه الشوق إلى هذا اللقاء. ولعل هذا هو تفسير قول الرسول، صلى الله عليه وسلم: «جُعِلَتْ قُرَّةُ عيني فى الصلاة»؛ فقد كان، صلى الله عليه وسلم، إذا انتظر الصلاة هامَت إليها أشواقه، فيقول: «أرحنا بالصلاة يا بلال»! لما كان يجده فى الصلاة من الأنس والانتعاش الروحى بلقاء ربه.

إن الصلاة أقوى صلة بين العبد وربه، فإذا أحسن العبد هذه الصلة، فقد وضع يده على كنز من القوة لا ينفد، وعلى معين من الأنس لا يَنضب، وعلى مدَد من الرحمة لا ينقطع ومن أجل هذا كانت الصلاة أول فرائض الدين، وأكثرها دورانًا مع الليل والنهار؛ وكان أول ما اهتم به رسول الله بناء المسجد، لأن المسجد مكان الصلاة، والصلاة عماد الدين. ومن أجل ذلك بَنَى المسجد فى قباء قبل أن يدخل المدينة، ولم يكن مُكْثه بقباء غير بضعة أيام. فلما دخل المدينة كان أول ما فكر فيه أن يبنى مسجده.

مسجد النبي

وكان الموضع الذى بركتْ فيه ناقته مَرْبِدًا لغلامين يتيمين من بنى النجار، فاختاره رسول الله ﷺ مكانًا لمسجده. وكان فضاء واسعًا يجفَّف فيه التمر، فيه بعض أشجار من النخيل والغَرْقد، وبعض قبور مهجورة من قبور الجاهلية، وبعض حفر قدْ تجمع بها الماء من نَشع الأرض. وكان أسعد بن زُرارة قد اتخذ من ناحية منه مسجدًا صغيرًا، حوطه بجدار من الحجارة، وجعل عليه عريشًا من سعف النخل، فكان يصلى فيه هو وأصحابه، قبل أن يَقْدَم رسول الله إلى المدينة. فلما قدمها رسول الله ﷺ جعل يصلى بهم فيه أحيانًا، وأحيانًا يصلى بهم فى غيره.. فحيث أدركته الصلاة صلى، حتى لقد كان يصلى أحيانًا فى مرابض الغنم، واستمر على ذلك حتى بنى مسجده.

النبي يبنى المسجد على أبسط الأوضاع

وشرع صلى الله عليه وسلم فى بناء مسجده، فأمر بأشجار النخيل والغَرْقد فقُطعت، وبالقبور فنُبِشت وغُيبت عظامها فى الأرض، وبالماء المتجمع فسُرِّب فى الأغوار، ثم ردمت الحفر وسُويت الأرض، وأخذ فى بناء المسجد على أبسط ما يمكن أن يكون.. فضاء من الأرض طوله خمس وثلاثون ذراعًا وعرضه

ثلاثون، يحيط به حائط من البنيان لا يزيد على قامة الرجل، أساسه من الحجارة، وحيطانه من اللبن، وله ثلاثة أبواب، باب من الشرق وباب من الغرب، وباب من الجنوب وهو الخلف؛ وفى ناحية منه أقيمت ظُلَّةٌ من الجريد على قوائم من جذوع النخل، كانت تسمى « الصُّفَّة »، أما باقى المسجد فقد ترك مكشوفًا بلا غطاء. وظلت أرض المسجد أرضًا على طبيعتها لم تفرش بشيء، حتى نزل المطر ذات ليلة، فأصبحت الأرض مبتلة، فجعل الرجل يأتى بالحصا فى ثوبه، فيبسطه تحته ليصلى؛ فلما قضى رسول الله ﷺ الصلاة قال: « ما أحسن هذا البِساط » !

ويروى أن رسول الله ﷺ لما أراد أن يبنى المسجد قال: « ابنوا لى عريشًا كعريش موسى؛ ثُمامات وخشبَات وظُلَّة كظلة موسى.. والأمر أعجل من ذلك » ! قيل: وما ظلة موسى؟ قال: « كان إذا قام أصاب رأسه السقف » ومعنى ذلك أن رسول الله كان لا يبغى من المسجد إلا أن يكون مكانًا صالحاً لأداء الصلاة وكفى. أما التزيد فيما وراء ذلك من زخرف أو زينة، فشيء لا ينبغى أن يُضَيَّع فيه وقت؛ لأن العُمرَ أضيق من أن يتسع لمثل هذا، وأغلى من أن يُضيعَ فى مثل هذا.

وكان صلى الله عليه وسلم، يعمل مع أصحابه فى بناء هذا

المسجد، كما كان يعمل معهم فى مسجد قباء؛ فكان يحمل الحجارة واللبِن حتى يَغْبرَّ صدرُه، وحتى دفع ذلك بعض الصحابة إلى أن يقول :

لئن قَعَدْنَا والنبيُّ يعملُ لَذاَكَ منا العملُ المُضَلَّلُ

فجعل الصحابة ينشدونها ويتغنون بها وهم يعملون. وكان صلى الله عليه وسلم يأبى إلا أن يكون واحدًا من أصحابه، يعمل كما يعملون، ويُنشد كما ينشدون، ويأخذ بحظه من ثواب الله كما يأخذون، فقد لقيه رجل من أصحابه وهو يحمل لَبِنة فقال : أعطنيها يا رسول الله - يريد أن يخفف عنه - فقال له رسول الله، صلى الله عليه وسلم : « اذهب فخذ غيرها، فلستَ بأفقرَ إلى الله منى » !

وكان الجميع يعملون مبتهجين، وهم يرتجزون الأراجيز وينشدونها، تعبيرًا عن سرورهم، واغتباطهم بهذا العمل العظيم، الذى يدركون قيمته ويَقْدُرون غايته.

فلما تم بناء المسجد جعله النبى ﷺ مجتمعًا لأصحابه، يصلى بهم فيه، ويخطبهم، ويعلمهم أصول دينهم. وكان يخطب فيهم قائمًا مستندًا إلى جذع من جذوع النخل، حتى كبرت سنُّه وضعف عن القيام؛ فصنعوا له مِنْبرًا بسيطًا من الخشب، يتكون من درجتين ومجلس يجلس فوقه، حتى يقوم للخطبة، فيقف على

أدنى الدرجتين ثم يخطب. ولم يكن بالمسجد مصابيح تنيره بالليل؛ فكانوا إذا اشتد الظلام أحضروا بعض الحطب وأشعلوا فيه النار، فاستضاءوا بها حتى يصلوا؛ ومازالوا على هذه الحال، حتى قدم عليهم تميم الدَّاريُّ من الشام، فأوقد فيه المصابيح وعلقها فى سَوَارِى المسجد. فسُرَّ بذلك رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وقال له: «نَوَّرت مسجدنا، نوَّر الله عليك»!

* * *

وظل المسجد على حاله لم يتغير فيه شىء؛ غير أن رسول الله ﷺ زاد فى سعته قليلاً، حين كثر المسلمون بالمدينة وضاق بهم المسجد، فجعله خمساً وثلاثين ذراعًا فى خمس وثلاثين، وقيل: خمسين فى خمسين، وكان ذلك فى السنة السابعة من الهجرة. أما فيما عدا ذلك فقد بقى المسجد على ما كان عليه من البساطة والخشونة، حتى قُبِض رسول الله، صلى الله عليه وسلم.

مساكن النبي

ثم أخذ صلى الله عليه وسلم فى بناء مساكنه إلى جوار المسجد، فبنى حجرتين: إحداهما لزوجه سَوْدَة بنت زمعة، والأخرى لعروسه عائشة بنت أبى بكر. فلما فرغ من البناء دخل

بعائشة، وكان قد خطبها وهو فى مكة قبل الهجرة بنحو سنتين، ولم يدخل بها إلا بعد هجرته بنحو سبعة أشهر.

ثم جعل صلى الله عليه وسلم، يزيد فى مساكنه شيئًا فشيئًا، كلما اتخذ زوجة بنى لها بيتًا، حتى صارت بيوته تسعة. فكان بعضها فى الجهة الجنوبية من المسجد، وبعضها فى الجهة الشرقية منه، وكان يفصل بينه وبين طريق عرضه خمس أذرع. وكانت مساكنه، صلى الله عليه وسلم، فى غاية التواضع والتقشف، محيطها الخارجى من اللبن، وسقفها من جذوع النخل وجريده، وقواطعها الداخلية من الجريد المكسوّ بالطين ومن المُسوح الصوفية.

الأذان والصلاة

وكانوا إذا جاء وقت الصلاة، نادى منادى رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «الصلاة جامعة»!.. فيجتمع الناس. وقيل: إنهم كانوا يجتمعون لوقت الصلاة بغير دعوة. وكان رسول الله ﷺ قد أهمه أمر الأذان وإعلام الناس بالصلاة، حتى قال: «لقد هممت أن أبعث رجالاً فيقومون على آطام المدينة، فيُؤْذِنون الناس بالصلاة». واستشار فى ذلك أصحابه؛ فقال بعضهم: نستعمل الناقوس كما يفعل النصارى؛ وقال بعضهم: ننفخ فى

البوق كما يفعل اليهود؛ وقال بعضهم : نضرب بالدف كما يفعل الروم؛ وقال بعضهم : نوقد نارًا كما يفعل المجوس؛ واقترح بعضهم أن تُرفَع راية إذا حان وقت الصلاة، فإذا رآها الناس أعلم بعضهم بعضًا. . ولكن رسول الله ﷺ لم يرتض شيئًا من ذلك، وكان صلى الله عليه وسلم، يحب أن يعمل عملاً يتميز به الإسلام من سواه، فتفرقوا ولم يتفقوا على شيء، وقام رسول الله مهتمًا وقام أصحابه كذلك. وفى رواية أنهم اتفقوا على الناقوس وهموا أن يَنْقُسُوا.

قال ابن إسحاق : «فبينما هم على ذلك، إذ رأى عبد الله ابن زيد – بن ثعلبة – النداء. فأتى رسول الله ﷺ فقال له : «يا رسول الله، إنه طاف بى هذه الليلة طائف : مر بى رجل عليه ثوبان أخضران يحمل ناقوسًا فى يده، فقلت له : يا عبد الله، أتبيع هذا الناقوس؟ قال : وما تصنع به؟ قلت : ندعو به إلى الصلاة. قال : أفلا أدلك على خير من ذلك؟ قلت : وما هو؟ قال تقول : «الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر. أشهد أن لا إلـه إلا الله، أشهد أن لا إلـه إلا الله. أشهد أن محمدًا رسول الله» أشهد أن محمدًا رسول الله. حىّ على الصلاة حىّ على الصلاة، حىّ على الفلاح، حىّ على الفلاح. الله أكبر، الله أكبر. لا إله إلا الله».

فلما أخبر بها رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قال: «إنها لرؤيا حق إن شاء الله.. فقم مع بلال فألقها عليه فلْيُؤَذن بها، فإنه أنْدَى[1] صوتًا منك». فلما أذن بها بلال، سمعها عمر بن الخطاب وهو فى بيته، فخرج إلى رسول الله وهو يجر رداءه وهو يقول: يا نبى الله، والذى بعثك بالحق لقد رأيت مثل الذى رأى! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «فلله الحمد على ذلك!»».

قال ابن سعد: وبقى ينادَى فى الناس: «الصلاة جامعة» للأمر يحدث، فيحضرون له فيخبرون؛ مثل فتح يُقرأ أو أمر يؤمر به، فينادى: «الصلاة جامعة» وإن كانت فى غير وقت الصلاة.

صلة المسلم بالمسلم أساسها الأخوة فى الله

وأما صلة المسلم بالمسلم فقد جعلها صلى الله عليه وسلم أُخُوَّةً فوق أخوّة النسب.. أخوّة خالصة فى الله وحده، أساسها قول الله عز وجل: ﴿إنما المؤمنون إخوة﴾، وقوله عليه الصلاة والسلام: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يُسلمه. ومن كان فى حاجة أخيه كان الله فى حاجته». وعلى هذا الأساس آخى

---

(١) أندى صوتًا: أعلى وأبعد مدى.

رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار، فجعل لكل رجل من المهاجرين أخًا من الأنصار. فكان الأنصارى يشاطر أخاه المهاجر داره وماله، وهو بذلك طيب النفس قرير العين؛ حتى لقد عرض سعد بن الربيع الأنصارى على عبد الرحمن بن عوف، أن يشاطره ماله، وأن يطلق له إحدى زوجتيه ليتزوجها، فضرب الأنصار بذلك مثلاً فى الأخوة لا نظير له فى تاريخ الإنسانية كلها. وقد عرَف الله سبحانه للأنصار هذه المكرمة، ونوّه بذكرها لهم فى كتابه إذ يقول عز وجل: ﴿والذين تَبَوَّءُوا الدارَ والإيمانَ من قَبْلِهم يُحِبُّون من هاجر إليهم، ولا يَجِدُون فى صُدورهم حاجةً مما أوتُوا ويؤْثِرون على أنفسهم ولو كان بهم خَصاصة ومن يوق شُحَّ نَفْسِهِ فأولئك هم المفلِحُون﴾[1].

لكن المهاجرين لم يستغلوا هذه العاطفة الكريمة فى إخوانهم الأنصار ليعيشوا كَلًّا عليهم، بل أخذوزا يسعوْن ويكُدون فى سبيل العيش، فاشتغل بعضهم بالتجارة فى أسواق المدينة، واشتغل بعضهم بالزراعة فى أرض الأنصار، وكانوا يجهدون أنفسهم فى العمل حتى يتصبب العرق منهم، وتظهر آثاره فى ثيابهم وأبدانهم.

ولقد قاسى المهاجرون فى المدينة كثيرًا من ضَنْك العيش،

---

(١) سورة الحشر الآية ٩.

ومرت بهم أزمات شديدة قاسية؛ ولم يكن ذلك تقصيرًا من الأنصار فى معونتهم، بل إن عددهم قد جعل يتزايد بالمدينة، حتى غدا أكثر مما تحتمله طاقتها. لكن رابطة الأخوة الرحيمة الصادقة التى جمعت بينهم، قد هونت عليهم كل شدة، وسهلت لهم كل صعب، وعوضتهم من شقاء الأجسام نعيم الأرواح وسعادة الأنفس.

لقد كانت هذه الأخوّة شيئًا جديدًا على المجتمع العربى، الذى قطعت أوصاله عصبية القبيلة، وفككت روابطه قرابة الدم؛ بل كانت نوعًا فريدًا فى تاريخ الأخوة الإنسانية، قضى على كل تعصب للجنس وللون وللقرابة وللوطن.

صلة المسلم بغير المسلم أساسها الأخوة الإنسانية

وأما صلة المسلم بغير المسلم، فقد أقامها رسول الله ﷺ على أساس الوَشيجة الإنسانية العامة، التى تربط الإنسان بأخيه الإنسان؛ وجعل ميزانها قوله صلى الله عليه وسلم: «أحب للناس ما تحب لنفسك». ذلك أن الناس - مهما اختلفت أجناسهم وعقائدهم - لا بد لهم أن يتعاونوا على قضاء حوائجهم؛ ولا سبيل إلى التعاون بينهم إلا فى ظل السلام، ولا سبيل إلى السلام إلا إذا ساد بين الناس شعور الأخوة

والترابط بالوشيجة الإنسانية العامة فأَحَبَّ كل إنسان لأخيه الإنسان ما يحب لنفسه.

كانت المدينة أنسب البيئات لتجريب المبادئ الإسلامية

وكانت المدينة «يثرب» بما فيها من العناصر المتنافرة، ومن العقائد المختلفة. أصلح مكان لتجريب هذه التجربة وتطبيق هذا المبدأ. فقد كان فيها اليهود - وأهم أهل كتاب - يتألفون من ثلاث قبائل: بنى النضير، وبنى قُرَيظة، وبنى قَيْنُقاع؛ وكل قبيلة مقسمة إلى بطون وعشائر. وكان فيها العرب - وهم مشركون - يتألفون من قبيلتين: قبيلة الأوس، وقبيلة الخزرج؛ وكانت كل قبيلة مقسمة إلى بطون وعشائر، «وكانت كل قبيلة أو عشيرة تؤلف جماعة منفصلة ومستقلة تمام الاستقلال»[1].

وفوق ذلك لم يكن العرب واليهود على وفاق دائم، بل لم يكن العرب أنفسهم على وفاق بعضهم مع بعض، ولم يكن اليهود كذلك على وفاق بعضهم مع بعض، وكانت نيران العداوة والبغضاء فى المدينة دائماً مستعرة، وكان التنافس وتضارب المصالح يزيد فى أسباب الشقاق، وكثيرًا ما قامت المعارك ونَشِبت الحروب بين أهل هذه المدينة. فلما أسلم الأنصار من

(١) الدعوة إلى الإسلام.

الأوس والخزرج، وهاجر إليهم فريق من مسلمى قريش، ظهر فى المدينة عنصر جديد ، هو عنصر المسلمين؛ وهو عنصر منافس، لا تنظر إليه العناصر الأخرى بعين الرضا والمودة.

وهكذا كانت المدينة عند مَقْدَم النبى ﷺ خليطًا من العقائد المختلفة، ومن العناصر التى لا يربطها نظام ولا وحدة ولا وفاق؛ فعمل صلى الله عليه وسلم على أن ينظمها ويوحد بينها، ويجمعها تحت جامعة الإنسانية العامة، ويقيم التعاون بينها على أساس من الإخاء العام، الذى يربط بين الإنسان وأخيه الإنسان. فكتب كتابًا بين المهاجرين والأنصار، بين فيه ما يجب على المؤمنين والمسلمين - بعضهم لبعض - من التعاون والتكافل والتناصر والأخذ على يد الباغى؛ ووادع فيه اليهود وعاهدهم، فشرط لهم أن يكونوا آمنين على دمائهم وأموالهم ومواليهم، وأن يكونوا أحرارًا فى عقائدهم؛ فمن تبع المسلمين منهم فله ما للمسلمين من النصر والأسوة. واشترط عليهم أن يكونوا مع المسلمين يدًا واحدة على من دَهَم يثرب أو حارب أهلها، وأن ينفقوا مع المؤمنين، ما داموا محاربين؛ على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم.

كما اشترط على المشركين من العرب ألا يُجير مشرك مالا لقريش ولا نفسًا ولا يحول دونه على مؤمن؛ وألا تُجارَ قريش

ولا من نصرها، وأن بينهم النصر على من دهم يثرب، على كل أناس حصتُهم من جانبهم الذى قِبَلهم.

وكما تضمن الكتاب حرّية العقيدة وحرية الرأى وحرية الهجرة والإقامة، تضمن حُرْمة النفس وحرمة المال وحرمة الجوار وحرمة الوطن، وكفل نُصرة المظلوم ومقاومة المعتدى وإعانة المُثْقَل، وشدد فى تحريم البغى والفساد وإيواء الباغين والمفسدين، وفتح باب الصلح لمن أراده من المسلمين وغير المسلمين، ودعا الجميع إلى التعاون على البر دون الإثم؛ وجعل الاحتكام فيما يكون بين أهل هذه الصحيفة من خلاف، إلى الله وإلى رسوله محمد، صلى الله عليه وسلم.

وكان الهدف الذى يرمى إليه رسول الله ﷺ، أن يعيش الجميع فى وطنهم آمنين على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم وأهليهم، وأن يكونوا أحرارًا فى عقائدهم وآرائهم، وأن يتعاونوا على البر والتقوى لا على الإثم والعدوان.

* * *

وهكذا أخذ رسول الله ﷺ يضع قواعد المجتمع المثالى الصالح، الذى يسوده السلام والوئام والحب؛ ويُعِدّ له الفرد المثالى الصالح، الذى يقيم صلته بالله على الإخلاص فى عبادته والعمل فى مرضاته، ويقيم صلته بالناس على التعاون الصادق فى

سبيل الخير، ويعاملهم جميعًا على أنهم إخوة، فمن وافقه فى عقيدة الإسلام فهو أخوه فى الله، ومن خالفه فيها فهو أخوه فى الإنسانية.

وأخذ الوحى ينزل على رسول الله ﷺ بالتشريع الذى يقيم نظام الجماعة على أساس واضح، ويضمن سلامة بنائها من عوادى النزعات والأهواء؛ ففُرض الصيام تربية لإرادة الفرد، وإرهافًا لإحساسه نحو الفقير والمسكين؛ وفرضت الزكاة تقريرًا لمبدأ التكافل العام بين أفراد الجماعة. وأخذت الأمة المسلمة تتميز بخصائصها ومبادئها؛ فاتخذ الأذانُ للصلاة وحُوّلت قبلة المسلمين إلى الكعبة، بعد أن كانوا يشاركون اليهود فى قبلتهم إلى بيت المقدس.

لقد كان فيما وضع الإسلام من مبادئ وأوصول، كفايةً وضمانٌ لدوام السلام والتراحم والحب بين الناس، لولا أن طبيعة الأثرة فى بنى آدم، تحرك شهوات النفوس فى كثير من الناس، فتثير فيها عوامل الحسد والغيرة والبغضاء لكل مصلح؛ وتدفعها إلى اعتراض كل إصلاح لا يجارى أهواءها، ولا يوافق مصالحها، وإن كان هو الحق كل الحق، والصلاح كل الصلاح للمجتمع.

حماية العقيدة

كانت رسالة محمد إلى الناس كافة
ولكن قريشًا وقفت عقبة فى سبيلها

لا شك أن مهمة الرسول ﷺ الأولى هى البلاغ. فكل رسول أرسله الله إلى قوم كان عليه أن يبلغ دعوته إلى قومه؛ وفى هذا يقول الله تعالى: ﴿رُسُلا مُبشِّرين ومُنْذِرين لِئلاَّ يكون للناس على الله حُجَّةٌ بعدَ الرُّسل﴾[1]، ويقول لرسوله محمد، صلى الله عليه وسلم: ﴿يا أيُّها الرسولُ بَلِّغْ ما أُنزل إليك من رَبِّك، وإن لم تَفعل فما بلَّغْت رِسالتَه﴾[2].

وقد أرسل الله رسوله محمدًا، صلى الله عليه وسلم، إلى الناس كافة؛ فكان عليه أن يبلغ رسالة ربه إلى الناس، وأن ينشرها بينهم فى أوسع مدى ممكن، من الأمة التى يعيش فيها، ومن الأمم التى حولها. وكان صلى الله عليه وسلم، يذكر هذه الحقيقة، وينوّه بها فى كثير من أحاديثه فيقول: «بعثت إلى

(١) سورة النساء الآية ١٦٥.
(٢) سورة المائدة الآية ٦٧.

الأحمر والأسود». . «أرسلت إلى الناس كافة، وبى خُتم النبيون». . «أنا رسول من أدركت حيًّا ومن يولد بعدى»، كما كان يذكرها على لسان الوحى فيقول: ﴿وأوحىَ إلى هذا القرآن لأُنْذِرَكُم به ومَنْ بَلَغَ﴾(1). وفى القرآن الكريم كثير من الآيات، وفى كتب الصحاح كثير من الأحاديث تشير كلها إلى ذلك.

وقد قضى رسول الله ﷺ فى مكة ثلاثة عشر عامًا يدعو إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، فلم يؤمن به فى هذه الحِقَبة الطويلة إلا نحو ثلاثمائة؛ وهو عدد قليل جدًّا إذا قيس إلى مجموعة السكان فى مكة، وإلى مدى الزمن الذى تم فيه إيمان هذا العدد القليل. ذلك أن قريشًا وقفت عقبة كئودًا فى سبيل دعوة الإسلام، تحاربها، وتفتن بها، وتبذل كل ما فى وسعها لكيلا يؤمن بها أحد. فلما أراد بعض المؤمنين أن يفروا بدينهم إلى بلاد الحبشة، أرسلت قريش رُسلها فى طلبهم، وبذلت فى ذلك ما بذلت من جهودها وأموالها، لولا أن عصم الله المؤمنين منها بعدل النجاشى وحكمته.

فلما قيَّض الله لرسوله ﷺ من آمن به من أهل يثرب، وبايعوه على أن يمنعوه حتى يبلغ رسالة ربه إلى الناس، تزلزلت قريش واضطربت لهذه البيعة، وجرت فى إثر أولئك الأنصار

---

(1) سورة الأنعام الآية ١٩.

تحاول أن تسترد منهم بيعتهم. فلما عجزت عن استردادها منهم، أخذت تحول بين المؤمنين وبين أن يهاجروا إلى يثرب، حتى لم يستطع أن يهاجر منهم إلا الأقوياء، وحتى لم يستطع أكثر هؤلاء الأقوياء أن يهاجروا إلا تسللا تحت ستار الليل، وفى غفلة من عيون القوم؛ أما المستضعفون من الرجال والنساء والولدان، فقد استطاع أقلهم أن ينجو بنفسه، وبقى أكثرهم حبيسًا فى مكة، يقاسى من ظلم قريش، وعدوانها ما يقاسى.

على أن هذا كله لم يَشف غِل قريش، ولم يُذهب غيظ قلوبها على دعوة الإسلام، فأخذوا يدبرون ويأتمرون برسول الله ليقتلوه.

* * *

لم فعلت قريش كل هذا؟.. كانت قريش تدعى أنها تفعل ذلك محافظة على دينها، فهل كانت تبغى أن تحافظ على دينها حقًّا؟ لو كان هذا حقًّا لوقفت إذن فى وجه كل من خرجوا على دينها من قبل؛ فليس محمد أول من خرج على دين قريش، بل خرج من قبله نفر من حلمائها وعقلائها، ذكر التاريخ منهم زيد بن عمرو بن نُفَيل، وورَقة بن نوفل، وعبد الله ابن جحش، وعثمان بالحُوَيْرث، وقُسّ بن ساعدة. وكان زيد بن عمرو يقف بجوار الكعبة، فيعيب دين قريش ويدعو إلى دين

إبراهيم؛ وكان قس بن ساعدة يخطب بدينه فى الأسواق. بل إن كثيرًا من رجال قريش وشبابها كانوا لا يتمسكون بدينهم، ولا ينظرون إلى آلهتهم نظرة التقديس والإجلال.

لم تكن قريش إذن حريصة كل الحرص على دينها.. فلم وقفت تعارض محمدًا هذه المعارضة، وتحاول الصد عن دعوته بكل ما تستطيع من جهد ومال؟ ولم وقفت تناوئه هو من دون من خرجوا على دينها؟.. لقد أراد محمد أن يترك لقريش دينها ويخرج عنها بدعوته وأصحابه إلى غير مكة من بلاد الله؛ فهل سمحت له قريش بذلك؟ أما كان فى ذلك راحة لها ولهم؟ أما كان فى ذلك أسوة بمن خرجوا على دينها قبل محمد، وذهبوا فى البلاد باحثين عن دين غير هذا الدين؟ بلى..! ولكن دعوة محمد كانت خطرًا مباشرًا على سيادة قريش، وكانت سيادة قريش هى مصدر عزها ونعمتها، وكان دين قريش وهو مصدر هذه السيادة التى أغرقتها فى النعيم والترف. ومن هنا كانت قريش تنظر إلى هذه الدعوة، كما تنظر إلى الخطر الداهم الذى يريد أن ينقض عليها، فيقوّض أركانها ويهد كيانها.

كانت هجرة النبي فرارًا بدعوته لا فرارًا بنفسه

لم يكن بقريش إذن حرص على دينها، بل كان بها الحرص كل الحرص على كيانها؛ ولم تكن تدافع عن عقيدتها، وإنما

كانت تدافع عن سيادتها؛ ومن أجل هذا وقفت تناوئ دعوة الإسلام، وتحاول أن تمنعها من الخروج عن أقطار مكة. فلما تسربت الدعوة على رغمها إلى يثرب، وصار لها هنالك أنصار وأعوان، وأخذ المسلمون يتسللون من مكة مهاجرين إلى هذا المأمن الجديد.. أدركت قريش ما هنالك من خطر، وأيقنت أن الخطر لا بد واقع بها، إذا لم تتدارك أمرها بأسرع ما تستطيع؛ فاعتزمت أن تقضى على محمد، قبل أن يلتحق بأصحابه وأنصاره فى المدينة.

والذى لا شك فيه أن قريشًا لم تكن تبغى القضاء على محمد لأنه محمد؛ إنما كانت تبغى القضاء عليه لتقضى على دعوته الخطيرة؛ فقد خُيِّل إلى قريش أن محمدًا هو باعث هذه الدعوة ومصدر الخطر فيها، وأن فى القضاء عليه قضاءً على دعوته؛ وغاب عنها أن محمدًا ليس إلا رسولاً، وأن الله الرحيم بعباده ﴿هو الذى أرسَل رسوله بالهُدَى ودينِ الحقّ ليُظْهِرَه على الدين كله ولَوْ كَرِهَ المشركون﴾[1]، وأنه تكفَّل لرسوله بأن يعصمه من الناس حتى يبلغ رسالته؛ ومن أجل هذا صرف عنه كيد قريش، وهيأ له سبيل الهجرة بدعوته إلى يثرب.

---

(١) سورة التوبة الآية ٣٣. وسورة الصف الآية ٩.

ظلت قريش تطارد الدعوة فى المدينة كما كانت تطاردها فى مكة

لم تكن هجرة الرسول ﷺ إذن فرارًا بنفسه من قريش، إنما كانت فرارًا بدعوته الحبيسة، بعد أن وقفت قريش لها بكل سبيل، تحول بينها وبين الظهور والانتشار؛ فهل كان من المعقول أن تسكت عنه قريش وأن تتركه فى مكانه آمنًا ينشر دعوته كما يشاء وحيث شاء؟.. إن نجاح هذه الدعوة معناه القضاء المبرم على كيان قريش. فكيف تتركها الآن تهدأ وتستقر، بعد أن بذلت ما بذلت فى حربها هذه السنين الطوال؟ كيف تتركها وقد أصبحت خطرًا يهدد تجارتها إلى الشمال، بعد أن صار لها فى المدينة أنصار وأعوان؟..

لم يكن هناك شك فى أن قريشًا ستضاعف جهودها فى محاربة هذه الدعوة، وستبذل كل ما فى وسعها لكى تجمع العرب على محاربتها. وهذا ما أخذت قريش تعمل له وتسعى إليه؛ فقد جعلت منذ ذلك الحين، تحرض القبائل المحيطة بالمدينة على المسلمين، وتؤلب عليهم أعداء الإسلام فى داخلها، فقضى المسلمون أيامهم الأولى بالمدينة بين خوف وحذر، يترقبون فى كل لحظة عدوًا يهاجمهم بقوته من الخارج، أو يفاجئهم بخيانته من الداخل.

كان لابد للدعوة من قوة تحميها

أفكان يمكن أن تسير الدعوة بعد ذلك بغير قوة تحميها، والأعداء يحيطون بها من كل جانب، ويتربصون بها الدوائر فى كل وقت؟ لم يكن ذلك بالطبع ممكنًا؛ فكان طبيعيًّا إذن أن يحمى المؤمنون دعوتهم، وأن يدفعوا عنها من يعتدى عليها. ومن أجل هذا أذن الله للمؤمنين أن يقاتلوا فى سبيل دعوتهم، فقال سبحانه: ﴿أذن للذين يُقاتَلون بأنهم ظُلموا، وإنَّ الله على نَصْرِهم لقَدير * الذين أُخْرِجوا من دِيارِهم بغير حق إلا أنْ يقولوا: رَبُّنا الله؛ ولولا دَفع الله الناس بَعضَهم ببعضٍ لهدمت صوامعُ وبِيعٌ وصلوات ومساجد يُذْكَرُ فيها اسمُ الله كثيرًا؛ ولينصرن الله من ينصرهُ إنَّ الله لَقَوى عَزيز * الذين إن مكَّنَّاهم فى الأرضِ أقامُوا الصلاةَ وآتَوُا الزكاة وأمَروا بالمعروفِ ونَهوا عن المُنْكَر، ولله عاقبةُ الأمور﴾[1]

وبهذا أذن الله للمؤمنين أن يقاتلوا مَن ظلمهم وأخرجهم من ديارهم، لا لشيء إلا لأنهم آمنوا بالله وحده؛ وبين لهم أن الدفاع عن العقيدة هو الطريق الطبيعى لحمايتها، ولتمكين المؤمنين من أن يقيموا شعائر دينهم، وأن ينشروا الصلاح ويقضوا على

---

(١) سورة الحج الآيات ٣٩ - ٤١.

الفساد فى الأرض؛ ووعدهم النصر والتأييد على إعلاء كلمة الحق ما داموا يقاتلون فى سبيل الحق. فكان هذا مبدأ عامًّا لقتال كل عدو يقف فى طريق الدعوة إلى الإسلام.

وكانت قريش هى العدو الأول، الذى ظلم المسلمين وأخرجهم من ديارهم ووقف سدًّا فى طريق دعوتهم؛ فكان عليهم أن يقاتلوها دفاعًا عن عقيدتهم، وانتصافًا لأنفسهم، ما دام الله قد أذن لهم، ووعدهم النصر والتأييد، وجعل لهم قوة يستطيعون بها أن يدفعوا عن أنفسهم شر هذا العدو الحانق.

لقد صبر المسلمون على الأذى حين كانوا بمكة قلة مستضعفين فى الأرض؛ فلما آزرهم الله بإخوانهم الأنصار فى يثرب، لم يعد هناك معنى للرضا بالذل أو البقاء على الهوان، وأصبح واجبًا عليهم أن يُشعروا عدوهم بقوتهم؛ فليس يدفع القوة إلا القوة، ولا يُفلّ الحديد إلا الحديد. ولعل هذا هو مرمى قوله تعالى: ﴿وأعدُّوا لهم ما استطعتُم من قُوَّة ومن رِباطِ الخيل تُرْهبون به عدوَّ الله وعدوَّكم وآخرين من دُونِهم لا تَعْلَمُونهم الله يَعْلَمُهم﴾(١).

---

(١) سورة الأنفال الآية ٦٠.

لم تكن قريش وحدها هى العدو

فهل كانت قريش وحدها هى العدو الذى يناوئ الإسلام ويصد عن سبيله؟ لا.. لم تكن قريش وحدها هى العدو وإن كانت هى أولَ من بادى المسلمين بالعداوة؛ بل كان هنالك اليهود من أهل المدينة وما حولها، وكان هنالك المنافقون من أهل المدينة وما حولها؛ وكان هنالك المشركون من أهل المدينة ومن قبائل العرب جميعًا.. كان كل أولئك أعداء لدعوة الإسلام؛ منهم من كان يعاديها بدافع الحرص على مكانته، ومنهم من كان يعاديها بدافع العصبية وحدها، ومنهم من كان يعاديها مدفوعًا بتحريض غيره، ومنهم من كان يعاديها حسدًا وبغيًا، ومنهم من زُيِّفت عليه أصولها وشُوِّهت له معالمها، فهو يعاديها دون أن يقف على حقيقتها.

كان اليهود يعادون الدعوة حسدًا وبغيًا

أما قريش فقد كانت تعارض دعوة الإسلام، لأنها كانت تعارض رَفاهيتها وسيادتها. وأما اليهود فكانوا أهل علم وكتاب سماوى، وكانوا أوْلى الناس بأن يؤمنوا بمحمد ﷺ، وأن يصدقوا ما جاء به من هذا الدين الذى جاء مكملا لدينهم، مصدقًا لما بين أيديهم من الكتاب، موافقًا لكل ما يعرفون من صفة

هذا النبى الأمى، الذى يجدونه مكتوبًا عندهم فى التوراة. ولكن طبيعة الأثَرة غلبت على نفوسهم، فعز عليهم أن يكون هذا النبى من العرب لا من اليهود، وأن ينازعهم المكانَة الدينية أحدٌ من غيرهم، أو تشاركهم أمة أخرى فى هذه المَيْزة التى يمتازون بها على العالمين، فقد كان اليهود يعتقدون أنهم أبناء الله وأحِبَّاؤه، وشعبه المختار فى الأرض، وأن الرسل والأنبياء لا يكونون إلا منهم.

فلما أرسل الله محمدًا ﷺ من العرب لا من اليهود، ملأ نفوسهم الحسد والغيرة، وأكل قلوبهم الحقد والغيظ، وجعلوا يشككون فى نبوته وفى دينه، ويقولون: ليس محمد هو الرسول الذى كنا ننتظر، وليس دينه هو الدين الذى كنا نبتغى. وحرّفوا ما جاء فى كتابهم عنه، وغيروا كل ما يدل عليه من اسم أو صفة أو إشارة، وأضمروا له العداوة والبغضاء، وقالوا: ﴿إنّ الله عَهِد إلَيْنَا ألاَّ نُؤمِنَ لِرَسُولٍ حَتى يَـأتِيَنا بِقُـرْبَان تـأكُله النَّار﴾[1]، يريدون بذلك إفحام الرسول وإبطال نبوته. وجعلوا وَكْدَهم أن يصدوا عن سبيل الله ما استطاعوا؛ متخذين لذلك كل وسيلة دنيئة، وكل حيلة دنسة؛ مدفوعين بدافع الحسد والحقد، حتى لا يظهر فى الأرض دين غير دينهم، ولا يسيطر

(١) سورة آل عمران الآية ١٨٣.

على قلوب الناس رسول من غيرهم.

ومع أن رسول الله ﷺ كان يعلم ذلك من أمرهم، فإنه جعل يدعوهم إلى الإسلام فى رفق، ويجادلهم بالتى هى أحسن، ويتغاضى عن كثير من سيئاتهم، ويقول لهم فى هَوادَة: ﴿يا أهلَ الكتابِ تَعالَوْا إلى كلمة سَوَاء بَيْنَنا وبينَكم ألاَّ نَعبُد إلا الله ولا نُشرك به شيئًا ولا يتخذَ بعضُنا بعضًا أرْبابًا مِن دونِ الله﴾[1]؛ ويعاتبهم فى هوادة أيضًا: ﴿قل يا أهلَ الكتاب لِمَ تكفُرون بآياتِ الله والله شهيدٌ على ما تعملون * قل يا أهلَ الكتابِ لِمَ تَصُدُّون عن سبيلِ الله مَنْ آمَنَ تَبْغُونها عِوَجًا وأنتم شُهَداء وما الله بغافل عما تَعملون﴾[2]، ويذكِّرهم نعمَ الله عليهم ونداءه لهم: ﴿يابَنِى إسرائيل اذكروا نِعْمتِىَ التى أنعمْتُ عليكم، وأوْفُوا بعَهْدِى أوفِ بعهدِكم، وإيَّاىَ فارْهَبون * وآمِنوا بما أنزلتُ مُصَدِّقًا لِمَا معكم ولا تكونوا أوَّل كافرٍ به ولا تَشْتَروا بآياتى ثَمَنًا قليلاً، وإيّاىَ فاتّقُونِ * ولا تَلْبِسُوا الحق بالباطلِ وتَكْتُموا الحقَّ وأنتم تَعلمون * وأقِيموا الصلاةَ وآتُوا الزكاةَ واركَعوا مع الراكعين * أتأمُرُون النَّاسَ بالبِرِّ وتَنْسَوْنَ أنفُسَكم وأنتم تَتْلُون الكتابَ أفلا تعقلون * واستَعِينوا بالصَّبْرِ والصلاة وإنها لَكَبيرةٌ إلا على الخاشِعين * الذين يَظُنُّون أنَّهمْ مُلاقُو ربِّهم وأنهم إليه

(١) سورة آل عمران الآية ٦٤

(٢) سورة آل عمران آيتا ٩٨، ٩٩.

راجعون * يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمتُ عليكم وأنى فضّلتكم على العالمين * واتقوا يومًا لا تجزى نفسٌ عن نفسٍ شيئًا ولا يُقبَلُ منها شفاعةٌ ولا يُؤخذُ منها عَدْلٌ ولا هم يُنصَرون﴾[1].

كان النبي يتودد إلى اليهود وهم يعادونه

وقد جعل صلى الله عليه وسلم يلاينهم ويترضّاهم، ويتودد لهم ويصابرهم، ويدعوهم إلى دينه بكل وسائل الإقناع والرفق. بل جعل يشاركهم فى كثير من مشاعر دينهم؛ فيصوم معهم يوم عاشوراء كما يصومونه، ويتوجه إلى بيت المقدس فى صلاته كما يتوجهون إليه؛ وأمّنهم على حريتهم ودينهم ودمائهم وأموالهم، ومد يده إليهم ليتعاونوا معه على حماية يثرب - وطنهم - ممن يغير عليه.. ولكن نيران الحسد كانت تغلى فى قلوبهم؛ ولم يكن يطفئ هذه النيران إلا أن يعود المسلمون إلى الكفر بعد الإيمان؛ فكان هدفهم وهدف المشركين واحدًا فى القضاء على دعوة الإسلام، حتى قال الله فيهم وفى المشركين: ﴿ما يَوَدُّ الذين كفَروا من أهل الكتابِ ولا المشركين أن يُنَزّلَ عليكم من خيرٍ من ربكم﴾[2].

(١) سورة البقرة الآيات ٤٠ - ٤٨.
(٢) سورة البقرة الآية ١٠٥.

وظلت العداوة كامنة فى صدورهم لرسول الله ﷺ ولدعوته منذ قدم عليهم المدينة، وجعل لهيبها يزداد كلما رأوا سلطانه يتمكن ودينه يظهر، حتى صرحوا بها وأعلنوا، وجاهروا رسول الله بالكفر والعداوة، والمكر والكيد؛ فكان من أمره وأمرهم ما كان بعد ذلك.

روى ابن إسحاق فيما كان من حديث ابن سلَام - حَبْر اليهود وعالمهم - حين أسلم أنه قال: «لما سمعت رسول الله ﷺ، وعرفت صفته واسمه وهيئته وزمانه الذى كنا نَتَوكَّف له.. فلما قدم المدينة نزل بقباء فى بنى عمرو بن عوف، فأقبل رجل حتى أخبر بقدومه، وأنا فى رأس نخلة لى أعمل فيها، وعمتى خالدة بنت الحارث تحتى جالسة.. فلما سمعتُ الخبر بقدوم رسول الله كبرت؛ فقالت عمتى حين سمعت تكبيرى: لو كنت سمعت بموسى بن عمران ما زدت! (قال): قلت لها: «أىْ عمَّة، هو والله أخو موسى بن عمران وعلى دينه، بُعِث بما بُعث به» (قال): فقالت: «يا ابن أخى، أهو النبى الذى كنا نُخبَّر أنه يبعث مع نَفْسِ الساعة»[1]؟ (قال): قلت لها: «نعم». قالت: فذاك إذن! (قال): فخرجت إلى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فأسلمت، ثم رجعت إلى أهل بيتى فأمرتهم

---

(١) تعنى أنه آخر رسول تقوم بعده القيامة.

فأسلموا. وكتمت إسلامى من اليهود، وقلت : يارسول الله، إن اليهود قومُ بُهتٍ[1]، وإنى أحب أن تُدخلنى فى بعض بيوتك فتغيّبنى عنهم، ثم تسألهم عنى، فيخبروك كيف أنا فيهم، فأدخلنى رسول الله فى بعض بيوته، ودخلوا عليه فكلموه وسألوه؛ ثم قال لهم : «أى رجل الحصَيْن بن سَلَام فيكم» ؟ قالوا : سيدنا وابن سيدنا وحَبْرُنا وعالِمُنا.. (قال) : فلما فرغوا من قولهم خرجت عليهم فقلت لهم : يا معشر يهود، اتقوا الله واقبَلوا ما جاءكم به؛ فوالله إنكم لتعلمون إنه لرسول الله، تجدونه مكتوبًا عندكم فى التوراة باسمه وصفته! فإنى أشهد أنه رسول الله، وأومن به وأُصدقه وأعرفه.. فقالوا : كذبت! ثم وقعوا بى[2]. فقلت لرسول الله، ﷺ : ألم أخبرك يارسول الله أنهم قوم بُهْت أهل غدر وكذب وفجور؟ (قال) : وأظهرت إسلامى وإسلامَ أهل بيتى، وأسلمتْ عمتى خالدة بنت الحارث فحسُن إسلامها».

وروى ابن إسحاق من حديث صفية بنت حُيَىّ بن أخطب - زوج رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أنها قالت : «كنت أَحَبَّ ولَدِ أبى إليه وإلى عمى أبى ياسر، لم أَلْقَهُمَا قَطُّ مع ولد لهما إلا أخذانى دونه. (قالت) : فلما قدم رسول الله، صلى الله

(١) قوم بهت : قوم زور وبهتان.

(٢) وقعوا بى : عابونى وسفهونى.

عليه وسلم، المدينة، ونزل بقباء فى بنى عمرو بن عوف، غدا عليه أبى وعمى مُغَلِّسَيْن. فلم يرجعا حتى كان مع غروب الشمس، فأتَيا فاترين كسلانين ساقطين، يمشيان الْهُوَيْنَى. (قالت) : فَهَشَشْت إليهما كما كنت أصنع، فوالله ما التفت إلىّ واحد منهما، مما بهما من الغم! وسمعت عمى أبا ياسر وهو يقول لأبى حيى بن أخطب : أهو هو. . ؟ قال : نعم والله. قال : أتعرفه وتُثْبِته؟ قال : نعم. قال : فما فى نفسك منه؟ قال : عداوته - والله - ما بقيت!!»

وكان المنافقون يتظاهرون بالإسلام ويضمرون له العداوة

أما المنافقون فهم الذين قالوا : آمنا بأفواههم، ولم تؤمن قلوبهم، يصلون كما يصلى المسلمون، ويصومون كما يصوم المسلمون، ويشاركون المسلمين فى كثير من شعائر دينهم؛ فهم فى ظاهر أمرهم مسلمون، ولكن قلوبهم تضمر العدواة والبغضاء للإسلام وأهله. . كان فريق منهم يُبْغض الإسلام لما فوّت عليه من المنفعة العاجلة والمصلحة الخاصة؛ وفريق كان يرى فى الإسلام خطرًا على دينه؛ وفريق كان يستمع لتشكيك اليهود فى رسول الله ﷺ وفى دعوته؛ وفريق كان يرى رسول الله وصحبه من المهاجرين دخلاء على المدينة، وعنصرًا غريبًا ينبغى ألا يمكّن

له فيها. وعلى كل فقد كان هؤلاء وهؤلاء يشكّون فى انتصار الإسلام على اليهودية والوثنية؛ فخشى كل فريق أن يورّط نفسه فى مناصرته، وآثر الانتظار والتربص حتى يرى ما يكون من أمره. فلما رأوا قوة المسلمين تزداد، وسلطانهم يتمكن تظاهروا بالدخول فى الإسلام؛ فوَقَوْا بذلك أنفسهم شر العداوة الظاهرة؛ وتمكنوا أن يدخلوا فى صفوف المسلمين، فيعرفوا ما يريدون من أسرارهم، ويمدوا بها من يشاء من أعدائهم؛ فكانوا بذلك أخطر على الإسلام من اليهود والمشركين.

ويقول الرواة: إن عبد الله بن أُبَىّ بن سَلُول كان على رأس المنافقين، وإن الذى دعاه إلى عداوة الإسلام، أن أهل المدينة من الأوس والخزرج، كانوا أوْشكوا أن يُملكوه عليهم، وذلك حين قدم رسول الله ﷺ عليهم المدينة. فلما آمنوا برسول الله وصدقوا بدعوته، تركوا ما كانوا قد عزموا عليه من تمليك عبد الله بن أبى، ودخلوا فى طاعة رسول الله، صلى الله عليه وسلم؛ فحزّ ذلك فى نفس ابن أبى، وجعل ينظر إلى رسول الله كما ينظر إلى الغريم الذى غلبه على ما كان بين يديه؛ فلم يؤمن به حين قدم المدينة، وظل على شركه حتى كانت غزوة بدر فى السنة الثانية من الهجرة، ونصر الله المسلمين على المشركين.. فلما رأى شوكة الإسلام تشتد، وأمره يظهر، قال لأصحابه:

« هذا أمر قد تَوَجَّه ». . ودخلوا فى الإسلام ظاهرًا، وأضمروا له العدواة والبغضاء فى أنفسهم، وجعلوا يتربصنون به الدوائر، ويكيدون للمسلمين كلما وجدوا أمامهم فرصة سانحة.

وكان الأعراب يعادون الدعوة مجاراة لقريش

كذلك كان الأعراب الذين يحيطون بالمدينة، والذين يقيمون فى الطريق بينها وبين مكة، والذين ينتشرون فى شرق الجزيرة وغربها وشمالها وجنوبها. . كل هؤلاء وأولئك كانوا لا يزالون على شركهم، وعبادتهم لأوثانهم، وتقليدهم لآبائهم؛ فاستغلت قريش سلطانها الدينى على هؤلاء المشركين، وجعلت تحرضهم على الإسلام، وتبث فى نفوسهم العدواة له والثورة عليه.

ولقد وجدت قريش فى شرك المشركين من العرب، وفى نفاق المنافقين من المسلمين، وفى عداوة اليهود للإسلام ورسوله ﷺ وجدت فى كل ذلك مددًا عظيمًا يمكن استغلاله فى القضاء على دعوة الإسلام؛ فسعت لذلك سعيها، وضاعفت جهودها. وهذا ما حسب النبى له حسابه، حين طلب إلى الأنصار - قبل هجرته - أن يعاهدوه على أن يمنعوه مما يمنعون منه نساءهم وأبناءهم؛ وحين عاهد اليهود - بعد هجرته - فاشترط عليهم أن يكونوا يداً واحدة على من دهم يثرب أو حارب أهلها. فقد كان على يقين بأن قريشًا لن تتركه آمنًا فى مكانه، ولن يهدأ لها

بال حتى تقضى عليه وعلى دعوته، وحتى تردَّ المسلمين إلى الكفر بعد الايمان. وهذا ما أكده الوحى فى قول الله عز وجل عنهم: ﴿ولا يَزَالُون يقاتِلونكم حتى يَرُدُّوكم عن دينِكم إن استطاعوا ومَن يَرْتَدِدْ منكم عن دينِه فيَمُتْ وهو كافرٌ فأولئك حَبِطَت أعمالُهم فى الدُّنيا والآخرِة وأولئك أصحابُ النارِ هم فيها خالدون﴾[1].

القتال فى الإسلام ليس إلا دفاعًا عن العقيدة

كان الإسلام إذن فى حاجة إلى أن يدافع عنه أهله، وأن يحموه من أذى أعدائه، وأن يعملوا على عَرْضه للناس فى جو من الحرية والأمن والطمأنينة؛ ولكل امرئ بعد ذلك أن يختار لنفسه: ﴿فمن شاء فلْيؤمِنْ، ومن شاء فلْيكفُرْ﴾[2] ومن أجل هذا أذِن الله للمؤمنين فى القتال، لأنه الوسيلة الوحيدة لحماية العقيدة وتأمين المؤمنين بها، حين لا تجدى وسائل السلم.

على أن الله سبحانه حين أذن للمؤمنين فى القتال، لم يأذن لهم فيه إلا دفاعًا عن عقيدتهم، وحماية لها ممن يعتدى عليها. وفى حدود الدفاع عن العقيدة وحمايتها، نزلت آيات القتال والحث عليه فى القرآن الكريم.

---

(١) سورة البقرة الآية ٢١٧.

(٢) سورة الكهف الآية ٢٩.

فالذين يقاتلون المؤمنين، يجب على المؤمنين أن يقاتلوهم : ﴿وقاتلوا فى سبيلِ الله الذينَ يقاتِلونكم ولا تَعْتَدوا إنّ الله لا يحبُّ المعتدِين﴾[1].

والذين يُخرجون المؤمنين من ديارهم، يجب على المؤمنين أن يقاتلوهم : ﴿واقْتلوهم حيثُ ثَقِفْتمُوهم وأخرِجوهم مِنْ حيثُ أخرَجوكم﴾[2].

والذين يفتنون المؤمنين عن دينهم، يجب على المؤمنين أن يقاتلوهم : ﴿والفِتْنَةُ أشدُّ من القتل﴾[3].

والذين يحاولون الوقوف فى سبيل دعوتهم، يجب على المؤمنين أن يقاتلوهم : ﴿وقاتِلوهم حتى لا تكونَ فتنةٌ ويكونَ الدِّينُ لله﴾[4].

والذين يَستذِلون المستضعفين من المؤمنين، يجب على الأقوياء منهم أن يقاتلوا لإنقاذهم : ﴿وما لكم لا تقاتِلون فى سبيل الله والمُستضْعفين مِن الرجال والنساء والوِلْدان الذين يقولون : ربَّنا أخرِجْنا من هذه القريةِ الظالمِ أهلُها واجعَلْ لنا من لَدُنْك وَلِيًّا واجعلْ لنا من لَدُنْك نَصيرا﴾[5].

والذين يخونون عهودِ المؤمنين يجب على المؤمنين أن يقاتلوهم

---

(١) سورة البقرة الآية ١٩٠.

(٣،٢) سورة البقرة الآية ١٩١.

(٤) سورة البقرة الآية ١٩٣.

(٥) سورة النساء الآية ٧٥.

بعد إنذارهم : ﴿وإمَّا تخافَنَّ من قوم خيانةً فانْبِذْ إليهم على سوَاء إنَّ الله لا يحِبُّ الخائنين﴾[1].

ولم يكن القتال وسيلة قط لإكراه الناس على الإسلام

والمبدأ العام فى ذلك قول الله تعالى : ﴿فمن اعْتَدى عليكم فاعتْدُوا عليه بمِثْل ما اعتدَى عليكم﴾[2].. فمن اعتدى على المسلمين بالقتال فالمسلمون مكلَّفون أن يقتلوه حيث وجدوه؛ ومن أخرجهم من ديارهم فليخرجوه منها كما أخرجهم؛ ومن فتنهم عن دينهم أو صدّ عن سبيلهم فالفتنة أشد من القتل. فغاية القتال إذن ألا يُفْتَن المسلمون عن دينهم، وألا يُخْرَجُوا من ديارهم أو يُسْتَذَلُّوا فى أوطانهم؛ وأن يعِزَّ دينُ الله ويمتنع على الأذى والفتنة؛ وأن يظل سبيله حرًّا لمن أراد.

على أن يكون القتال كله فى سبيل الله؛ وأن تكون غايته إعلاء كلمته ونصر دينه؛ وأن تكون تقوى الله فى كل حالة هى شعار المؤمنين : ﴿واتقُوا الله واعلَمُوا أنَّ الله مع المتقين﴾[3]؛ وأن تنتهىَ الحربُ بانتهاء الغرض منها : ﴿فإن انتَهَوْا فلا عُدْوَانَ إلا على الظالمين﴾[4]؛ وأن تكون الرغبة فى السلم أولَ

(١) سورة الأنفال الآية ٥٨.
(٢) سورة البقرة الآية ١٩٤.
(٣) سورة البقرة الآية ١٩٤.
(٤) سورة البقرة الآية ١٩٣.

ما يحرصون عليه إذا بدا لهم من عدوهم رغبة فى السلم، حتى ولو كان العدو يريد بها خداعًا: ﴿وإن جَنَحُوا للسَّلم فاجْنَحْ لها وتَوكَّلْ على الله، إنه هو السميعُ العليم * وإن يريدوا أن يَخْدَعوك فإنَّ حَسْبَكَ الله﴾[1].

إنها الحرب إذن. ولكنها «ليست لإكراه الناس على الإسلام، وليست للغنائم والأسلاب والمنافع، وليست للقهر والغلب والاستغلال، وليست للاستعباد والتجبر والإذلال، وليست للمباهاة والفخر والسيادة.. إنما هى للدفاع عن حرية العقيدة وعن كرامة المعتقدين»[2].

أما العقيدة نفسُها فلم يكن القتال وسلة لإكراه الناس على اعتناقها؛ فإن العقيدة بطبيعتها تأبى الإكراه، ولا يمكن أن تستقر فى النفس عن طريقه. إنها فكرة يؤمن بها القلب عن طريق الرغبة، ويؤمن بها العقل عن طريق الاقتناع؛ ولم تكن القوة قط وسيلة إلى الإقناع ولا سبيلا إلى الرغبة. وقد بين الله هذه الحقيقة فى كتابه بوضوح وجلاء، فقال سبحانه: ﴿لا إكراهَ فى الدِّين قد تَبيَّن الرُّشْدُ من الغَى﴾[3].. ﴿إنَّ هذه تَذْكِرَة فَمَنْ شاء اتَّخذَ إلى ربِّه سبيلا﴾[4].. ﴿وقُل الحقُّ من ربِّكم فَمَن شاء

(١) سورة الأنفال آيتا ٦١، ٦٢

(٢) فى ظلال القرآن.

(٣) سورة البقرة الآية ٢٥٦.

(٤) سورة المزمل الآية ١٩.

فليُؤمِنْ ومَن شاء فليَكْفُر﴾[1]. وحدد لرسوله مهمته بقوله: ﴿إنْ عليكَ إلّا البَلاغ﴾[2].. ﴿إنْ أنتَ إلا نَذير﴾[3]. وحذَّره أن يجعل الإكراه وسيلةً من وسائله لهذا الدين، فقال سبحانه: ﴿فذكِّرْ إنما أنتَ مُذكِّر * لَسْتَ عليهم بمُسَيْطر﴾[4].. ﴿أفأنتَ تُكْرِهُ الناسَ حتى يكونوا مؤمنين﴾[5]. وعاتبه حين شغله الحزنُ لعدم إيمان قومه، فقال: ﴿لعَلَّك باخعٌ نَفْسَك ألاَ يكونوا مؤْمنين﴾[6]..

وهكذا تعددت الأساليب فى القرآن وتنوعت، لتأكيد هذا المعنى وتوضيحه فى نفس الرسول ﷺ. وإذن فلم تكن القوة وسيلة من وسائل الإسلام لإكراه الناس على اعتناقه؛ إنما كانت القوة لمدافعة أهل القوة، ولتأديب أهل البغى والعدوان.

إن العقيدة هى أعزُّ ما يعتزُّ به الإنسان، وأغلى ما يحرص عليه فى حياته؛ لأنها قوامُ الإنسان وفرقُ ما بينه وبين الحيوان.. فمن اعتدى على العقيدة فإنما هَدَم صاحب العقيدة وألغى وجودَه كلَّه. وقد عرف الإسلام للعقيدة قَدْرَها، فجعلها فوق الحياة

(1) سورة الكهف الآية ٢٩.
(2) سورة الشورى الآية ٤٨.
(3) سورة فاطر الآية ٢٣.
(4) سورة الغاشية آيتا ٢١، ٢٢.
(5) سورة يونس الآية ٩٩.
(6) سورة الشعراء الآية ٣.

ذاتها، وجعل الاعتداء عليها أشدَّ جُرْمًا من الاعتداء على الحياة. ومن هنا كانت الفتنة أشد من القتل، وأكبر من القتل؛ وكانت حماية المؤمنين لعقيدتهم شيئًا لا مناص منه، وضرورة تحتِمُها الكرامة الإنسانية، ويُلزِم بها الوجود الإنسانى نفسهُ.

حرب الأعصَاب

برم المهاجرون بحياة المدينة أول عهدهم بها

لم تكن حياة المهاجرين فى أول عهدهم بالمدينة مُرْضِيَةً كل الرضا، على رغم ما غمرهم به إخوانهم الأنصار من كريم العواطف؛ فلقد كان جوّ المدينة غيرَ جو مكة، وطبيعة الحياة هنا غير طبيعتها هنالك. . كان جو مكة صحوًا نقيًّا خاليًا من الرطوبة، تغلب عليه طبيعة الصحراء الجافة الخالية من الزرع والماء؛ وكان جو المدينة على عكس ذلك جوًّا مشوبًا برطوبة المزارع والأشجار والظلال والماء. فاستوخم المهاجرُون هواء المدينة ولم يوافق أمزجتهم؛ فمرض كثير منهم وضعفوا حتى كانوا يصلون من قُعود؛ فرآهم رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فقال: «اعلموا أن صلاة القاعد على النصف من صلاة القائم» فتجشموا المشقة وصَلَّوْا قيامًا.

قالت عائشة رضى الله عنها: «قدمنا المدينة وهى أوبأ أرض الله. .» وأصابتها الحمى فجعلت تسُبُّها، فنهاها رسول الله ﷺ فى ذلك. ومن الذين أصابتهم الحمى كذلك أبو بكر وبلال

وعامر بن فهيرة؛ وقد اشتد بهم المرض حتى كانوا يَهْذُون.
قالت عائشة: «.. فاستأذنت رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فى عيادتهم، فدخلت عليهم - وذلك قبل أن يُضرْب علينا الحجاب - فإذا بهم ما لا يعلمه إلا الله تعالى من شدة الوَعْك، فسلمت عليهم وقلت: يا أبت، كيف أصبحت؟ فأنشد:

كلُّ امرئ مصبَّحٌ فى أهلِهِ والموتُ أدنى من شِراك نَعلِهِ

(قالت): فقلت: إنا لله! إن أبى ليَهْذِى.. (قالت): فقلت لعامر بن فُهَيْرة: كيف تجدك؟ فقال:

إنى وجدتُ الموتَ دون ذَوْقِه إن الجبانَ حَتْفُه من فَوْقِهِ

فقلت: هذا والله لا يدرى ما يقول. (قالت): ثم قلت لبلال: كيف أصبحت؟ فإذا هو لا يعقل».

وكان بلال إذا أقلعت عنه الحمى يرفع عقيرته شوقًا إلى مكة بهذا الشعر:

ألا ليت شِعرى هل أبيتَنَّ ليلةً بوادٍ وحولى إذْخِرٌ وجَلِيلُ؟
وهل أرِدَنْ يوما مياه مَجَنَّةٍ وهل يَبْدُوَنْ لى شَامَةٌ وطَفِيلُ؟

ثم يقول: «اللهم العن شيبة بن ربيعة وأمية بن خلف، كما أخرجونا من أرضنا إلى أرض الوباء»!!

وقد زاد فى ثِقَل المدينة وهـوائها أن المدينـة بلـد زراعـى، والمهاجرون قوم تجار لا عهد لهـم بـالزراعة، وقـد خـرجوا إلى المدينة مجردين من أموالهم، وكانت طبيعتهم العربية تـأبى عليهم أن يعيشوا كَلًّا على غـيرهم؛ فجعلـوا يـروضون أنفسـهم على العمل فى الزراعة فعانَوْا من ذلك كثيرًا مـن العنـت والمشـقة، لاسيما الذين كانوا منهم يعيشون فى مكة عيشة مترفة.

وكانت غريزة الحنين الطبيعى إلى الوطن، من أسـباب ثقـل المدينة على المهاجرين؛ فقد روى عـن عـائشة أنهـا سـألت فى حضرة رسول الله ﷺ رجلا قدم من مـكة إلى المدينـة، فقـالت له : كيف تركت مكة؟ فذكر من أوصافها الحسنة مـا غَـرْغَرَت منه عينا رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وقـال : «لا تشـوِّقنا يافلان، ودع القلوب تَقَرّ»! وكان صلى الله عليه وسلم يدعو ربه أن يحبّب إليهم المدينة فيقول : «اللهـم حَبِّـبْ إلينـا المدينـة كما حببت إلينا مكة أو أشد، وبـارك لنـا فى مُـدِّها وصـاعها، وصَحِّحْها لنا، ثم انقل حُمَّاها إلى مَهْيَعة»! أى (الجُحْفة)[1].

ضيق المنافقين والكفار بالمهاجرين

على أن المدينة لم تكن كلها ترحيبًا خالصًا بالمهاجرين، فقـد كان إلى جانب الأنصار عدد غير قليل من سـكانها مـن اليهـود

(١) الجحفة : بلدة بالصحراء.

والمنافقين والمشركين، وكان هـؤلاء ينـظرون إلى المهـاجرين نـظرة المقت والحقد، ويعتبرونهم دخـلاء عليهـم، وعنصرًا غـريبًا جـاء يزاحمهم فى أرزاقهم، ويعكر عليهم صـفاء الحيـاة ورغـد العيش الذى ينعمون به.

من أجل ذلك جعل رسـول الله ﷺ يـدعو ربـه أن يحبب إليهم المدينة، ويرزقهم فيها رغـد العيش وبـركة الـرزق وصـحة البدن؛ وجعل يفكر فيما يهيئ لأصـحابه فيهـا حيـاة مسـتقرة هانئة، تزيل عنهم وحشة الغربة وذل الحاجة، وسَوْرة الحنـين إلى الأهل والوطن؛ « فَخَطَّ لمن يستطيع البنـاء منهـم فى كل أرض ليست لأحد، وفيما وهبت له الأنصار من خُططها، وأقـام قـوم منهم ممن لم يمكنه البناء بقباء عند من نزلوا عنده »[1].

لكن عدد المهاجرين ظل يزداد بـالمدينة حـتى ضـاقت بهـم رحابها، وأصبح بعضهـم وليس له زاد ولا مأوى؛ فأسكنهم النبى ﷺ صُفّة المسجد، وجعل يوزعهم على أصـحابه كل ليلـة عنـد العَشاء، ويأخذ هو فريقًا منهـم فيتعشّـوْن معــه، وكان هــؤلاء يسمَّوْن « أهل الصفة » وفقراء المسلمين. وكأنما كان هـذا الفقـر نعمة أنعم الله بها عليهم؛ فقد كان لـديهم مـن الفـراغ وسـعة الوقت ما جعلهم أشد الصحابة لصـوقًا بـالنبى، صلى الله عليـه

(١) السيرة الحلبية.

وسلم، وأكثرهم مداومة على حضور مجلسه، فأفادهم ذلك علمًا وفقهًا فى الدين، وإحاطة بسنة رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فكان منهم الفقهاء والعلماء. وكان رسول الله شديد الرعاية لهم؛ فكان إذا صلى جلس إليهم فقال لهم: «لو تعلمون ما لكم عند الله لأحببتم أن تزدادوا فقرًا وحاجة»؛ فكانوا يتجمّلون ويعتصمون بالصبر.

مرت بالمسلمين أزمات شديدة

لقد مرت بالمسلمين أزمات شديدة قاسية، وأيام كانوا لا يجدون فيها ما يسد الرمق من خشن الطعام، حتى لقد كان الضيف ينزل بهم أحيانًا، فيعرضه النبى ﷺ على أهله وأصحابه، فلا يجد عند واحد منهم ما يكفى لإطعامه؛ وحتى كان المسلم يسأل أخاه المسلم عن شىء من الطعام يتبلَّغ به، فيجده قد شد على بطنه من شدة الجوع؛ وحتى كان رسول الله ﷺ نفسهُ تمر به الليالى ذوات العدد، لا يوقد فى بيته نار ولا يطهى طعام. «وقد قاسى رسول الله ألم الجوع غير مرة، حتى اضطر ذات يوم إلى رهن درعه عند يهودى، لخلوّ بيته من صاع شعير»[1].

ويجمُل بنا أن نستعرض بعض صور من حياة المسلمين

(١) حياة محمد لدرمنغم.

بالمدينة، مما جاء فى كتب الصحاح، لنرى إلى أى درجة من الفقر والحاجة وصلت حال المهاجرين حينذاك :

صور من فقر المسلمين بالمدينة أول عهدهم بها

١ - عن أبى هريرة، رضى الله عنه، قال : «لقد رأيتُنى وإنى لأخرُّ - فيا بين منبر رسول الله ﷺ إلى حجرة عائشة - مغشيًّا علىّ، فيجىء الجائى فيضع رجله على عنق ويُرَى أنى مجنون؛ وما بى من جنون.. ما بى إلا الجوع» [رواه البخارى].

٢ - وعن فضالة بن عبيد، رضى الله عنه، أن رسول الله كان إذا صلى بالناس، يَخِرّ رجال من قامتهم فى الصلاة من الخَصَاصة - وهم أصحاب الصفة - حتى يقول الأعراب : هؤلاء مجانين..» [رواه الترمذى].

٣ - وعن أبى هريرة، رضى الله عنه، قال : خرج رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ذات يوم - أو ذات ليلة - فإذا هو بأبى بكر وعمر، رضى الله عنهما، فقال : «ما أخرجكما من بيوتكما هذه الساعة»؟ قالا : الجوع يا رسول الله. قال : «وأنا - والذى نفسى بيده - لأخرجنى الذى أخرجكما!.. قوما».. فقاما معه، فأتى رجلا من الأنصار فإذا هو ليس فى بيته. فلما رأته المرأة قالت : مرحبًا وأهلا! فقال لها رسول الله، صلى الله

عليه وسلم : « أين فلان » ؟ قالت : ذهب يَسْتَعْذِب لنا الماء[1] . . إذ جاء الأنصارى. فنظر إلى رسول الله ﷺ وصاحبيه ثم قال : الحمد لله ! ما أحدٌ اليوم أكرمَ أضيافًا منى ! فانطلق فجاءهم بعِذْق فيه بُسْرٌ[2] وتمر ورُطب، فقال : كلوا . . وأخذ المُدْية؛ فقال له رسول الله، صلى الله عليه وسلم : « إياك والحَلُوب » ! فذبح لهم؛ فأكلوا من الشاة ومن ذلك العذق وشربوا. فلما أن شبعوا وَرَوَوا قال رسول الله لأبى بكر وعمر : « والذى نفسى بيده لتُسألُنَّ عن هذا النعيم يوم القيامة ! أخرجكم من بيوتكم الجوع، ثم لم ترجعوا حتى أصابكم هذا النعيم » [رواه مسلم].

٤ – وعن أنس، رضى الله عنه، قال : جئت رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يومًا، فوجدته مع أصحابه وقد عصب بطنه بعصابة؛ فقلت لبعض أصحابه : لم عصب رسول الله بطنه ؟ فقالوا : من الجوع. فذهبت إلى أبى طلحة – وهو زوج أم سُلَيم بنت مِلْحان – فقلت : يا أبتاه، قد رأيت رسول الله قد عصب بطنه بعصابة، فسألت بعض أصحابه فقالوا : من الجوع . . فدخل أبو طلحة على أمى فقال : هل من شىء ؟ فقالت : عندى كِسَر من خبز وتمرات، فإن جاء رسول الله

(١) يستعذب : يطلب الماء العذب.

(٢) العذق : العرجون. والبسر : البلح الذى لم يتم نضجه، والتمر : البلح المجفف.

وحده أشبعناه، وإن جاء آخر معه قل عنهم. . [رواه البخارى ومسلم] .

٥ - وعن جابر بن عبد الله، رضى الله عنهما، قال : بعَثنا رسولُ الله - وأمّر علينا أبا عبيدة - نتلق عيرًا لقريش، وَزَوَّدَنا جرابًا من تمر لم يجد لنا غيره. فكان أبو عبيدة يعطينا تمرة تمرة. فقيل : كيف كنتم تصنعون بها ؟ قال : نمصّها كما يمص الصبى، ثم نشرب عليها الماء، فتكفينا يومنا إلى الليل؛ وكنا نضرب بِعِصيِّنا الخَبَط[1]، ثم نَبُله بالماء فنأكله. [رواه مسلم].

٦ - وعن أبى هريرة، رضى الله عنهم، قال : لقد رأيت سبعين من أهل الصفة، ما منهم رجل عليه رداء، إمّا إزار وإما كساء قد ربطوا فى أعناقهم؛ منها ما يبلغ نصف الساقين، ومنها ما يبلغ الكعبين، فيجمعه بيده كراهيَةَ أن تُرَى عورتُه. [رواه البخارى].

٧ - وعن ابن عمر، رضى الله عنهما، قال : كنا جلوسًا مع رسول الله، صلى الله عليه وسلم، إذ جاء رجل من الأنصار فسلم عليه، ثم أدبر الأنصارى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا أخا الأنصار، كيف أخى سعد بن عُبادة » ؟ فقال : صالح. فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم : « من يعوده

(١) الخبط : ورق شجر معروف.

منكم»؟ فقام وقمنا معه - ونحن بِضْعَة عشر ما علينا نعال ولا خفاف ولا قلانس ولا قُمص - ونمشى فى تلك السِّباخ[1] حتى جئناه؛ فاستأخر قومه من حوله حتى دنا رسول الله وأصحابه الذين معه. [رواه مسلم].

٨ - وعن أبى هريرة، رضى الله عنه، قال: جاء رجل إلى النبى، صلى الله عليه وسلم، فقال: إنى مجهود[2]! فأرسل إلى بعض نسائه فقالت: «والذى بعثك بالحق ما عندى إلا ماء»! ثم أرسل إلى أخرى فقالت مثل ذلك؛ حتى قلن كلهن مثل ذلك: «والذى بعثك بالحق ما عندى إلا ماء»! فقال النبى صلى الله عليه وسلم: «من يضيف هذا الليلة»؟ فقال رجل من الأنصار: أنا يا رسول الله. فانطلق به إلى رحله، فقال لامرأته: هل عندك شىء؟ قالت: لا، إلا قوتَ صبيانى. قال: فعَلِّليهم بشىء، وإذا أرادوا العَشاء فنوِّميهم، وإذا دخل ضيفنا فأطفئى السراج وأريه أنا نأكل. فقعدوا، وأكل الضيف، وباتا طاوِيَيْن. فلما أصبح غدا على النبى، فقال ﷺ: «لقد عجب الله من صنيعكما الليلة»! [رواه البخارى ومسلم].

---

(١) الخفاف: (جمع خف) وهو ما يلبس فى الرجل. والقلانس: (جمع قلنسوة) وهو ما يلبس على الرأس. والسباخ: (جمع سبخة) وهى الأرض الملحة النزازة.
(٢) المجهود: الذى أجهده الجوع وأضعفه.

٩ - وعن عروة بن الزُّبَيْر، عن عائشة، رضى الله عنها، أنها كانت تقول: والله يا ابن أختى إنْ كنا لننظر إلى الهلال ثم الهلال ثم الهلال - ثلاثة أهلة فى شهرين - وما أوقِدَ فى بيت رسول الله نار! قلت: ياخالة، فما كان يُعِيشكم؟ قالت: الأسْوَدان: التمر والماء.. إلا أنه كان لرسول الله ﷺ جيران من الأنصار، وكانت لهم مَنَايح[1]، وكانوا يرسلون إلى رسول الله من ألبانها، فيسقينا. [رواه البخارى ومسلم].

كان المهاجرون يقاسون شدة العيش بالمدينة وقريش بمكة تستمتع بأموالهم

هذه كانت حال المهاجرين منذ أول عهدهم بالمدينة.. ضنك فى المعيشة ومشقة فى العمل، ووحشة فى الغربة، وحنين إلى الوطن، وبُعد عن الأهل والمال، وشعور بالظلم والعدوان.. فى حين كانت قريش هنالك ترتع فى رغد من العيش وسعة من الرزق، وتستمتع بأموالهم التى أرغمتهم على أن يتركوها بمكة، وتتصرف فى دورهم ومتاعهم ومتاجرهم تصرف المالك، وتستذل من خلَّفوا وراءهم من المستضعفين من الرجال والنساء والولدان؛ ثم هى بعد ذلك تستطيل عليهم بهذه الأموال،

---

(١) المنايح (جمع منيحة): وهى ما يمنحه الرجل لغيره من ناقة أو عنز أو شاة لينتفع بها إلى حين ثم يستردها.

ولا تزال تحاول السعى وتُعِد العدة للقضاء عليهم.

أفلا يحق لهؤلاء أن يستردوا بعض أموالهم، ليفرّجوا بها عن أنفسهم وعن فقرائهم، ويخففوا عن إخوانهم الأنصار بعض ما ألقَوْا على كواهلهم من الأحمال الثقال؟ أولا يحق لهم أن يعودوا إلى ديارهم التى أُخرجوا منها ظلمًا بغير حق، إلا أن يقولوا: ربنا الله؟ أولا يحق لهم أن يستنقذوا المستضعفين من أزواجهم وأولادهم، ومن آبائهم وأمهاتهم، ومن إخوانهم وعشيرتهم؟ أولا يحق لهم أن يأمنوا على دينهم الذى هاجروا فى سبيله، وأن يؤمِّنوا الراغبين فيه على حريتهم حتى لا يُفتنوا كما فُتنوا؟ أولا يحق لهم أن يُشعروا عدوهم بأنه قد أصبحت لهم قوة تستطيع أن تحمى حماهم، وترهب من يحاول أن يعتدى عليهم؟.. لا شك فى أن كل سبب من هذه الأسباب كان كافيًا وحده لأن يدفع المسلمين إلى قتال قريش؛ فكيف وهذه الأسباب كلها مجتمعة هى التى تضطرهم إلى القتال، ليدرءوا عن أنفسهم شر هذا العدو الباغى؟..

الرسول يرسل الكتائب فى طريق قريش ليرهبها ويشعرها بقوة المسلمين

من أجل ذلك أخذ رسول الله ﷺ يرسل الكتائب من أصحابه فى طريق قريش، ليتحسس أخبارهم، ويكشف نواياهم؛

وليقطع الطريق على تجارتهم، فيقطع بذلك شريانًا من أهم شرايينهم التى تمدهم بالقوة والجبروت، وليشعرهم بأن المسلمين قد أصبحوا قوة يُخشَى بأسُها ويُحسَب حسابها، فلعلهم أن يَفيئوا إلى الصواب فيكفوا عن بغيهم وعدوانهم. فإذا استطاع المسلمون بعد ذلك أن يغنموا شيئًا من أموال قريش، فذلك بعض مالهم المغصوب وحقهم المسلوب: ﴿وَلَمن انتصر بعد ظُلْمه فَأولَئِك ما عليهم من سبيل * إنما السبيلُ على الذين يَظلِمون الناسَ ويَبْغُون فى الأرض بغيرِ الحق، أولئك لهم عذابٌ أليم﴾[1].

على أن الأمر فى ذلك لم يكن مقصورًا على قريش وحدها؛ فلقد كان للمسلمين أعداء فى المدينة وأعداء فيما حولها، ولن يَصُد هؤلاء وهؤلاء عن النَّيل من الإسلام إلا الخوف وحده؛ وهذا مرمى قوله تعالى: ﴿وأعدُّوا لهم ما استَطَعْتم من قُوَّة ومن رِباطِ الخيلِ تُرْهِبُون به عدوَّ الله وعدوَّكم وآخرين من دونهم لا تَعْلَمونَهم الله يعلمُهم﴾[2]

«لم تكن هذه السرايا إذن حربًا يراد بها الهجوم؛ إنما كانت مناوشات يراد بها إرهاب العدو، واختبار قوته ومدى استعداده للقتال، فكانت أشبه شىء بتراشق المدفعية البعيدة المدى اليوم،

(١) سورة الشورى آيتا ٤١، ٤٢.

(٢) فقه السيرة بتصرف والآية ٦٠ من سورة الأنفال.

لاختبار قوى التحصينات »[1]، ولذلك جعل النبى يطلق هذه السرايا واحدة بعد واحدة فى فترات متلاحقة.

سرايا السنة الأولى

ففى رمضان من السنة الأولى، أرسل حمزةَ بن عبد المطلب فى ثلاثين من المهاجرين، فسار حتى وصل البحر من ناحية « العيص »، فالتقى بأبى جهل يقود قافلة لقريش ومعه ثلثمائة راكب. وكاد الفريقان يقتتلان، لولا أن حجز بينهما مَجْدِىّ ابن عمرو سيد جُهَينة.

وفى شوال من السنة نفسها، أرسل عبيدةَ بن الحارث ابن عبد المطلب فى ستين راكبًا من المهاجرين، إلى وادى « رابغ »؛ فالتقى هناك بمائتين من المشركين على رأسهم أبو سفيان ابن حرب، فترامى الفريقان بالنَّبل، ولكن لم يقع بينهما قتال. وفى هذه السَّرية فر من المشركين إلى المسلمين عتبة بن غَزْوان والمِقداد بن الأسود، وكانا قد أسلما وخرجا ليلحقا بالمسلمين فى المدينة.

وفى ذى القَعدة من هذه السنة، خرج سعد بن أبى وقاص فى نحو عشرين من المهاجرين، يعترض عيرًا لقريش ففاتته العير.

---

(١) محمد القائد.

سرايا السنة الثانية

وفى صفر من السنة الثانية، خرج رسول الله ﷺ بنفسه فى جمع من المهاجرين يريد عير قريش، واستخلف على المدينة سعد ابن عبادة؛ فسار حتى بلغ «وَدّان» جهة الأبواء، فوجد العير قد سبقته؛ فحالف بنى ضَمْرة على «أنهم آمنون على أنفسهم وأموالهم، ولهم النصر على من رامهم؛ وأن عليهم نُصرة المسلمين إذا دُعوا لذلك». ثم رجع صلى الله عليه وسلم إلى المدينة بعد خمس عشرة ليلة.

ولم يمض على رجوعه إلى المدينة غير قليل، حتى علم أن عيرًا لقريش آيبة من الشام، فيها أمية بن خلف ومائة من قريش، وألفان وخمسمائه بعير. فخرج إليها فى شهر ربيع الأول فى مائة من المهاجرين، واستخلف على المدينة سعد بن معاذ، وسار حتى بلغ «بُواط» جهةَ يَنْبُع، فوجد العير قد فاتته؛ فرجع ولم يلق كَيْدا.

وأقام صلى الله عليه وسلم شهر ربيع الآخر وبعض جُمادى الأولى، ثم علم أن عيرًا عظيمة لقريش قد فَصَلت من مكة تريد الشام، على رأسها أبو سفيان ومعه بضعة وعشرون رجلا، وفيها جِماع أموالهم، حتى لقد قيل: إنه ما من قُرَشى ولا قرشية

إلا وله فى هذه العير مال. فخرج إليها رسول الله ومعه مائة وخمسون من المهاجرين، واستخلف على المدينة أبا سلمة ابن عبد الأسود؛ وسار حتى بلغ «العُشَيرة» من ناحية ينبع، فوجد العير قد مضت؛ فوادع بنى مُدْلج وحلفاءهم. ثم رجع إلى المدينة يترقب عودة العير.

ولم يكد رسول الله ﷺ يقيم بضع ليال بعد عودته من العشيرة حتى أغار على سَرْح المدينة كُرْز بن جابر الفِهْرى، فاستاق بعض إبل وأغنام كانت ترعى بناحية «الجَمّاء»، على ثلاثة أميال من المدينة. فما كاد يبلغ رسولَ الله ﷺ خبرُه، حتى أسرع فى جمع من أصحابه يطلب اللحاق بكرز، واستخلف على المدينة زيد بن حارثة الأنصارى. ومازال يسير حتى بلغ «سَفْوان» من ناحية بدر، ولكن فاته كرز فلم يدركه. ويسمى الرواة هذه الغزوة بغزوة «بدر» الأولى.

ويعلق بعض المؤرخين على حادثة كرز بأنه من حلفاء قريش، وأن قريشًا أرادت أن ترهب المسلمين كما يرهبونها، وأن تَكيل لهم كيلا بكيل. سواء أصح ذلك أم لم يصح، فإن أمثال هذه الغارات مما كان يجب على المسلمين أن يعُدوا له عُدته ليتّقوه.

حرب أعصاب

وقد اصطلح الرواة على أن الكتيبة التى لا يكون فيها رسول الله ﷺ تسمى «سَرية»، والتى يكون هو فيها تسمى «غزوة، أو غزاة» وإن لم يكن قد وقع فيها قتال. ومهما يكن من أمر هذه التسمية فإن الغزو لم يكن قط من أغراض هذه السرايا؛ فقد كان العدد الذى يخرج فى كل مرة قليلا لا يمكن أن يصلح لقتال هجومى، إنما كانت كلها كتائب استطلاع وكشف لحركات العدو، وكانت فى الوقت نفسه مناوشات يراد بها إرهاب أعداء الإسلام من قريش وغير قريش، وإشعار الجميع بأن المسلمين قوة تستطيع أن تناوئ من يناوئهم، وأن تدافع من يحاول الاعتداء عليهم.

ويقول الصاغ (أركان الحرب) محمد عبد الفتاح إبراهيم فى تفسير النظرة الفنية لهذه السرايا من الناحية الحربية: «الواقع أن التقدير الصحيح لهذه السرايا هى أنه قُصد بها أساسيًّا

١ - إعداد قوات تطوف ما بين المدينة ومكة. حتى لا تؤخذ المدينة على غرة.

٢ - العمل على الاقتراب من قريش فى عقر دارها بإغارات صغيرة سريعة، تعمل على خطوط مواصلات قريش إلى

الشام؛ وبذلك يستطيع المسلمون أن يحصلوا من قريش على « السبق فى العمل »، وهو عامل لازم فى الدفاع الهجومى. هذا عدا أن رجال قريش سيرهبون جانب المسلمين ».

« وقد نجد مثالا لهذه السرايا فى الدوريات الإنجليزية الخفيفة الحركة التى كانت تعمل داخل أراضى برقة، منذ أعلنت إيطاليا الحرب فى العاشر من يونية عام ١٩٤٠. وقد ربح محمد، عليه الصلاة والسلام. من سراياه فى العام الأول للهجرة، ماربحه البريطانيون من الدوريات البعيدة المدى فى عام ١٩٤٠ للميلاد، واستطاع المسلمون أن يُبقوا قريشًا على حذر، فحراس القوافل وقادتها يتوقعون لقاء المسلمين فى كل لحظة.. وهذا الاستعداد الدائم للحرب يثير الأعصاب، وهو أشد إجهادًا من القتال. وكان فى هذا كسب معنوى للمسلمين، وكانت هذه السرايا تعود فى كل مرة بمعلومات قيمة عن نيات قريش وما يعدونه للمستقبل القريب »[1].

ولقد أدت هذه المناوشات أغراضها كل الأداء؛ فقد أقَضَّت مضاجع قريش، وتركتها مفزّعة على أموالها بالليل والنهار، تحاذر المسلمين وتخشاهم على تجارتها فى الذهاب وفى الإياب، حتى لقد

---

(١) محمد القائد.

جعلت تزيد فى حراسة قوافلها منذ استقر المسلمون بالمدينة، وتسلك بها طرقًا غير مألوفة، وتضرب فى متاهات الصحراء ودروبها الوعرة، وفى ذلك مافيه من خسارة ومشقة.

كانت هذه السرايا إذن «حرب أعصاب» من جهة، وكانت من جهة أخرى نوعًا من «الحصار الاقتصادى»، الذى يلجأ المتحاربون إليه فى الحرب الحديثة؛ كما أنها أثمرت إلى ذلك ثمرة أخرى لها وزنها وقيمتها، وهى محالفة عدد من القبائل العربية الضارية فى الصحراء بين مكة والمدينة، وضمان مناصرتها للمسلمين إذا ما اعتُدِى عليهم، أو ضمان حيادها - على الأقل - وعدم انضمامها إلى قريش أو غيرها من أعداء المسلمين.

غلطة تحاول قريش استغلالها

على أن الشرارة التى اشتعلت بها النار بين الفريقين هى «سرية عبد الله بن جحش»: فقد أرسله رسول الله ﷺ فى رجب ومعه ثمانية من المهاجرين، ليستطلع أخبار قريش؛ فكتب له كتاباً وأمره ألا ينظر فيه حتى يسير يومين فإذا نظر فيه فلْيَمْضِ لما أمره، ولا يستكره أحدًا من أصحابه. فلما سار بهم يومين فتح الكتاب فإذا فيه: «إذا نظرت فى كتابى هذا فامض حتى تنزل «نخلة» بين مكة والطائف فترصَّدْ بها قريشًا، وتعلَّمْ لنا

من أخبارهم». فقال. «سمعًا وطاعة» وأخبر أصحابه بما فى الكتاب، وقال لهم: قد نهانى رسول الله ﷺ أن أستكره منكم أحدًا؛ فمن كان منكم يرغب فى الشهادة فلينطلق معى، ومن كره ذلك فليرجع. أما أنا فماض لأمر رسول الله، صلى الله عليه وسلم. فمضى، ومضى معه أصحابه لم يتخلف منهم أحد. غير أن سعد بن أبى وقاص وعتبة بن غزوان، أضَلاّ بعيرهما الذى كانا يتعاقبان الركوب عليه، فانطلقا يبحثان عنه فتخلفا عن أصحابهما؛ ومضى عبد الله بن جحش وبقية أصحابه حتى نزلوا بنخلة. وهنالك صادفوا عيرًا لقريش مقبلة من الطائف، تحمل زبيبًا وجلودًا وتجارة من تجارة قريش، ومعها أربعة نفر: عبد الله بن الحضْرمى، وعثمان بن المغيرة، وأخوه نوفل، والحكَم ابن كَيْسان. وكان ذلك فى آخر يوم فى شهر رجب؛ فتشاور عبد الله وأصحابه فى أمر العير، فقال بعضهم لبعض: والله لئن تركتموهم هذه الليلة ليَدخُلُن الحرم فلَيمتنعنّ به منكم، ولئن قتلتموهم لتقْتُلُنّهم فى الشهر الحرام. فترددوا وهابوا أن يقدموا عليهم؛ وما زالوا بين الإحجام والإقدام حتى شجع بعضهم بعضًا، فهجموا على العير، فقتلوا من حراسها عبد الله ابن الحضرمى، واستأسر لهما اثنان، وفر الرابع فلم يدركوه.. وأقبل عبد الله وأصحابه بالعير والأسيرين إلى المدينة؛ فلما قدموا

على رسول الله ﷺ وعلم بما كان من أمرهم غضب وقال: «ما أمرتكم بقتال فى الشهر الحرام»! ووقف العير والأسيرين، وأبى أن يأخذ منها شيئًا؛ فسُقِط فى أيديهم، وظنوا أنهم قد هلكوا، وجعل إخوانهم المسلمون يعنفونهم على ما صنعوا.

أما قريش فقد وجدتها فرصة سائغة لإثارة العرب على رسول الله، صلى الله عليه وسلم؛ فذهبت تُشيع فى الناس أن محمدًا وأصحابه قد استحلُّوا الشهر الحرام، فسفكوا فيه الدماء، وأخذوا الأموال، وأسروا الرجال. واستفظع الناس هذا الحادث حتى جعلوا يتساءلون مستنكرين: أيكون فى الشهر الحرام قتال؟ ويكون ذلك من محمد، وهو الذى يزعم أنه يتبع طاعة الله ويدعو إلى دينه؟ وأخذ المسلمون فى مكة بهول هذه الشائعة، فجعلوا يدافعون عن أصحابهم بأنهم إنما أصابوا ما أصابوا فى شعبان لافى رجب. وشَمِت بالمسلمين أعداؤهم، وفرح اليهود وتفاءلوا بأن الحرب واقعة لا محالة بين المسلمين وقريش، بل بينهم وبين العرب جميعًا، جزاء ما انتهكوا من حرمة الشهر الحرام. وتحرج الموقف، وأشكل الأمر، وكثر القيل والقال.

القرآن يدافع عن المؤمنين

حين ذلك جاءت نجدة السماء، فنزل الوحى على رسول الله.

يقول الله تعالى : ﴿يسألونك عن الشَّهر الحرامِ قتال فيه قل قتالٌ فيه كبير وصَدٌّ عن سبيل الله وكُفر به والمسجدِ الحرام، وإخراجُ أهلِه منه أكبر عند الله والفتْنةُ أكبرُ من القتل ولا يَزالون يُقاتلونكم حتى يَرُدُّوكم عن دينكم إن استطاعوا ومَن يَرْتَدِدْ منكم عن دينهِ فَيمُتْ وهو كافرٌ فأُولئك حَبِطت أعمالُهم فى الدنيا والآخرة، وأولئك أصحابُ النارِ هم فيها خالدون﴾[1].

نعم. إن القتال فى الشهر الحرام كبيرة، ولكن ما فعل المشركون أكبر إثماً وأعظم جرمًا؛ فقد كفروا بدين الحق، وصدوا عن سبيل الله، وانتهكوا حرمة البلد الأمين، فآذَوا المسلمين بكل أنواع الأذى، وصبوا عليهم ألوان العذاب، حتى فتن من المؤمنين من فتن، ومات من مات، وفرّ بدينه من فر، وأخرجوهم من ديارهم ظلمًا بغير حق، وحالوا بينهم وبين المسجد الحرام وهم أهله وأولياؤه. ثم هم هؤلاء يطاردونهم أينما ذهبوا، ويؤلبون عليهم الأعداء، ويثيرون عليهم الفتن، ولا يزالون يَسعَوْن جاهدين فى الكيد لهم حتى يقضوا عليهم أو يردوهم من بعد إيمانهم كفارًا.. فأى جرم أكبر من فتنة المرء عن دينه، وهو قوام روحه وحياة نفسه؟ وأى خسارة أعظم من

---

(١) سورة البقرة الآية ٢١٧.

أن يرجع إلى الكفر بعد الإيمان، وإلى الضلال بعد الهدى، وإلى[1] الظلمات بعد النور؟

لقد فعلت قريش بالمسلمين الأفاعيل؛ ولكنها تناست كل ما فعلت، ولم تذكر إلا حادثة ابن الحضرمى واستلاب العير، فجعلت تبدئ فيها وتعيد، واتخذتها حجة على رسول الله ﷺ تحاول أن تثير العرب بها على الإسلام وأهله. ولكن الله أفحم حجتها، ورد عن المسلمين كيدها، وجعل هذه الحادثة مفتاحًا من مفاتيح الخير، وسببًا من أسباب النصر والتأييد الذى غمر به المسلمين فى واقعة بدر.

قال ابن إسحاق: «فلما نزل القرآن بهذا الأمر، وفرج الله عن المسلمين ما كانوا فيه من الشّفق، قبض رسول الله ﷺ العير والأسيرين، وبعثت قريش فى فداء عثمان بن عبد الله والحكم بن كيسان، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا نُفديكموهما حتى يقدَم صاحبانا - يعنى سعد بن أبى وقاص وعتبة بن غزوان - فإنا نخشاكم عليهما، فإن تقتلوهما نقتل صاحبيكم». فقدم سعد وعتبة، فأفداهما رسول الله صلى الله عليه وسلم..

فلما تجلى عن عبد الله بن جحش وأصحابه ما كانوا فيه

(١) سورة البقرة الآية ٢١٨.

حين نزل القرآن طمعوا فى الأجر، فقالوا : يا رسول الله أنطمع أن تكون لنا غَزَاةً نعطى فيها أجر المجاهدين ؟ فأنزل الله فيهم : ﴿إنَّ الذين آمنوا والذين هاجَرُوا وجاهَدُوا فى سبيل الله أولئك يَرْجُون رحمة الله والله غفورٌ رحيم﴾[1]، فوضعهم من ذلك على أعظم الرجاء ».

(١) سورة البقرة الآية ٢١٨.

غزوة بدر

كان دفاع الله عن المسلمين مشجعًا لهم على التمادى فى مناوأة قريش

كانت حادثة ابن الحضرمى مفتاحًا من مفاتيح الخير، وسببًا من أسباب النصر والتأييد للمسلمين. فقد أرادت قريش أن تستغلها لإثارة العرب جميعًا على الإسلام، وإقامة حرب شعواء على المسلمين، تستأصل بها شأفتهم وتقضى على دينهم. ولكن الله أفحم قريشًا وأبطل حجتها، وبين للناس أن ما فعلته بالمسلمين كان أشنع وأفظع، وأن ما فعله المسلمون من القتل فى الشهر الحرام لا يقاس شيئاً إلى ما فعلت قريش؛ فتقطعت بهم الأسباب، وضاعت عليهم الفرصة، وخَرِست الألسنة التى كانت تذيع السوء عن المسلمين، وانكشف عن المسلمين ما غمرهم من الكرب، وفرح عبد الله وأصحابه بنصر الله لهم، ودفاعه عنهم.

وكان انتصار الله تعالى لفعل عبد الله وأصحابه، وإطماعه إياهم فى غفرانه ورحمته، مشجعًا للمسلمين على التمادى فى

مناوأة قريش، ومن جرى مجراها فى عداوة الإسلام وأهله؛ فأخذت البعوث الخارجة بعد ذلك تتألف من المهاجرين والأنصار، بعد أن كانت تتألف من المهاجرين وحدهم، وأيقن المسلمون أنهم يستقبلون مرحلة جديدة فى الكفاح، عليهم أن يستعدوا لها بكل قوتهم؛ وأنه لا جناح عليهم إذا قاتلوا من يحاول فتنتهم والصد عن سبيلهم، حتى ولو كان ذلك فى الشهر الحرام: ﴿الشهرُ الحرامُ بالشهرِ الحرامِ والْحُرماتُ قصاص فمن اعتدَى عليكم فاعتدُوا عليه بمثلِ ما اعْتَدى عليكم، واتقُوا الله واعلموا أنّ الله مع المتقين﴾[1].

وحينذاك أدركت قريش أنها مؤاخذة بما تفعل، وأن المسلمين لن يتركوها تصول وتجول بعد الآن، كما كانت تصول وتجول من قبل؛ وشعرت بأن هؤلاء الذين كانوا أذلة مستضعفين بالأمس قد أصبحوا قوة لها خطرها، وعقبة يحسب حسابها فى طريق تجارتها إلى الشام؛ فأخذت تعيد النظر فى أمرهم، وتطيل التفكير فى حماية أموالها من غاراتهم. وبقدر ما كانت قريش تفكر فى حماية تجارتها من المسلمين، كان المسلمون يفكرون فى قطع الطريق عليها، وفى اغتيال ما يستطيعون من أموالها؛ فقد كانت تجارة قريش هى مصدر أموالها، وكانت أموالها هى مصدر

---

(١) سورة البقرة الآية ١٩٤.

طغيانها وقوتها.. كانت هى الأجنحة التى بها تطير، والمخالب التى بها تفتك، فجعل المسلمون هدفهم أن يقُصوا هذه الأجنحة، ويقلموا هذه المخالب؛ فأخذوا يترصدون تجارتها، ويقفون لها بكل سبيل، فلعلها تنكسر شوكتها، فتكف عن طغيانها وعدوانها على المسلمين.

خرج الرسول معجلا بفريق من أصحابه ليدرك عير قريش قبل أن تفوته

وكانت العير التى خرج لها رسول الله ﷺ فى غزوة العُشَيْرة، أعظم عير وأجمعها لأموال قريش، حتى لقد قُوِّم ما فيها بنحو خمسين ألف دينار؛ فترامت إلى رسول الله أنباؤها بأنها قد فصّلت من الشام عائدة إلى مكة، فنَدَب لها أصحابَه وقال لهم: «هذه عير قريش فيها أموالهم، فاخرجوا إليها؛ لعل الله أن يُغَنِّمَكُموها».

وكان صلى الله عليه وسلم حريصًا على ألا تفوته العير فى إيابها، كما فاتته فى ذهابها، فاستنهض لها من خف من أصحابه وأمر من كان ظهره[1] حاضرًا أن ينهض، ولم ينتظر من كان ظهره غائبًا؛ فأسرع من أسرع، وأبطأ من أبطأ، ظنًّا أنها العير

(١) الظهر: الركوبة من فرس أو جمل أو نحو ذلك.

وأن رسول الله ﷺ لن يلقى حربًا، كما كان يحدث فى كل مرة.

وخرج رسول الله ﷺ يوم السبت لاثنى عشر من رمضان (يناير ٦٢٤)، ومعه ثلثمائة.. وبضعة عشرَ من المهاجرين والأنصار وكان قد بعث طلحة بن عبيد الله وسعيد بن زيد يَتَحَسَّسَان خبر العير، ولكنه خرج بأصحابه قبل أن يرجعا إليه، حرصًا على أن يدرك العير، وحذرًا مما عسى أن يصادف رسوليه من عقبات الطريق.

عرض الجند فرد صغارهم

وسار صلى الله عليه وسلم حتى بلغ «بيوت السُّقْيا»، وهى آبار عذبة الماء على نحو ميل من المدينة، فنزل بها يوم الأحد، فضرب عسكره هناك؛ ثم عرض الجند، فرد منهم صغارهم الذين لا يَقْوَوْن على حمل السلاح؛ فكان ممن ردهم: عبد الله ابن عمر، ورافع بن خَدِيج، والبراء بن عازب، وأُسَيْد ابن حُضَيْر بن سِماك، وزيد بن الأرقم، وزيد بن ثابت. وعرض عُمَيْر بن أبى وقاص فاستصغره، فبكى عمير، فأجازه وسيره مع الجيش.

روى الواقدى عن سعد بن أبى وقاص أنه قال: رأيت أخى عمير بن أبى وقاص - قبل أن يَعرضنا رسول الله ﷺ

يتوارى، فقلت : مالك يـاأخى ؟ قـال : إنى أخـاف أن يـرانى رسول الله ويستصغرَنى فيردنى، وأنـا أحـب الخـروج لعـل الله يرزقنى الشهادة ! (قـال) : فعُـرض على رسـول الله فـاستصغره، فقال له : « ارجع » فبكى عمير، فـأجازه رسـول الله، صلى الله عليه وسلم. (قال) : فكان سعد يقول : كنت أعقـد لـه حمـائل سيفه . . فقتل ببدر وهو ابن ست عشرة سنة.

كانوا يتبادلون الركوب لقلة ما معهم من الركائب

وخرج رسول الله ﷺ من بيوت السقْيا فى نحو خمسة وثلثمائة مقاتل، فيهم نحو سبعين من المهاجرين، ونحو مائتين وأربعين من الأنصار. ولم يكن معهم من الخيل غير فرسين اثنـين، ولا مـن الركاب سوى سبعين بعيرًا؛ فكانوا يتبادلُون الركوب عليهـا، كلُّ اثنين وكل ثلاثة وكل أربعة يَعتَقِبـون بعـيرًا؛ فـكان رسـول الله وعلى بن أبى طالب ومَرْثِد بن أبى مرثد الغَنَوىّ يعتقبـون بعـيرًا، وكان حمزة بن عبد المطلب وزيد بن حارثة وأبو كبشة وأنَسَـة - مَوْلَيَا رسول الله - يعتبقون بعيرًا، وكان أبو بكر وعمر وعبد الرحمن ابن عوف يعتقبـون بعـيرًا . . وهـكذا كان كل جمـاعة يتعاقبون المشى والركوب على بعيرهم. وكان صلى الله عليه وسلم يأبى إلا أن يشارك أصحابه فى تعبهم وراحتهـم، وإلا أن يـأخذ دوره فى المشى وفى الركوب كواحد منهم، فـكان إذا مـا انتهت

نوبته فى الركوب نزل، فيقول له رفيقاه : اركب يارسول الله حتى نمشى عنك. فيقول لهما : «ما أنتما بأقوى منى على المشى، وما أنا بأغنى عن الأجر منكما» !

وكان صلى الله عليه وسلم قد خرج من المدينة على غير لواء معقود؛ ولكنه منذ خرج من بيوت السُّقْيا وضع رجاله فى تشكيل حربى، يلائم ظروف السير فى أرض العدو؛ «فقد يَلْقَوْن عدوهم فجأة وهم على غير أهبة للقتال، وقد يأخذهم عدوهم على غِرة من الخلف؛ وهم كلما بعدوا عن المدينة، تقدموا فى أرض يسيطر عليها المشركون من قريش ومن يشابهونهم فى عداوة الإسلام»[1] ومن أجل هذا أخذ النبى ﷺ فى تنظيم رجاله على النحو الذى يأمن به المفاجأة، فجعل على الساقة قيس بن أبى صعْصعة، وعلى المقدمة الزبير بن العوام، وأظهر السلاح وعقد ألْوِيَةً ثلاثة : لواءً أبيض يحمله مصعب بن عمير، ورايتان سوداوان، إحداهما مع على بن أبى طالب، والأخرى مع رجل من الأنصار.

ويقول الصاغ (ا.ح) محمد عبد الفتاح إبراهيم فى كتابه «محمد القائد» : «ولسنا ندرى كم كان فى المقدمة و كم كان فى الساقة، حتى يمكن أن نقدر نظرة النبى إلى القوة اللازمة

---

(١) محمد القائد.

للحراسة، ولكن الذى يعنينا.. أن النبى قدر مسئوليته - كقائد - عن ضرورة وقاية قوته، وتأمينها من المفاجأة فى أثناء السير. ولكن لا ريب فى أنهم لم يسيروا فى صفوف متراصة، كالتشكيل الذى كانوا يقاتلون فيه، ولا فى جموع، بسبب طبيعة الأرض الرملية المكشوفة التى كانوا يسيرون فيها منذ تركوا المدينة. ولهذا لا جدال فى أنهم كانوا يسيرون فى تشكيل مفتوح، لسرعة السير من ناحية، ولأمْن المفاجأة من ناحية أخرى».

وقدّم رسول الله ﷺ أمامه عَيْنين له إلى المشركين يأتيانه بخبر عدوه - هما بَسْبَس بن عمرو، وعدى بن أبى الزَّغْباء - فانتهيا إلى ماء بدر، فوجدا هناك جاريتين تستقيان من الماء، وعلما من حوار دار بينهما أنهما تترقبان عير قريش، وأنها تصل إلى بدر غدًا أو بعد غد؛ فرجعا إلى رسول الله فأخبراه.

أبو سفيان يستنفر قريشًا لحماية أموالها

أما أبو سفيان فقد وصل إليه النبأ بأن محمدًا وأصحابه يترصدون عودته؛ فأرسل على عجل رسولا إلى قريش، ينبئها بما عزم عليه محمد وصحبه، ويستنفرها لحماية أموالها؛ ووصى رسوله أن يتخذ لذلك كل وسيلة تثير القوم، وتستنهض هممهم للغوث والنجدة. فاتخذ الرسول لذلك كل مظاهر الصارخ الملهوف؛

فجدع[1] بعيره، وحوّل رحله، وشق قميصه، ووقف يصرخ ببطن الوادى: «يامعشر قريش، اللّطيمة اللطيمة! أموالكم مع أبى سفيان، قد عرض لها محمد فى أصحابه، لا أرى أن تدركوها! الغَوْث الغَوْث.. !» فقالت قريش: أيظن محمد وأصحابه أنها كعير ابن الحضرمى؟ كلا، والله لَيَعلمَنَّ غير ذلك!.. وخرج رجال قريش سراعًا، وأعان قويُّهم ضعيفَهم، حتى ما منهم رجل إلا خرج أو بعث مكانه رجلا، وحتى يقول الرواة: إن أمية ابن خلف أراد أن يتخلف عن النفير، فجاءه عقبة بن أبى مُعَيْط ومعه مِجْمَرة وبَخور، فوضعها أمامه وهو جالس فى نَدِىّ القوم، وقال له: «استَجْمِر أبا علىّ، فإنما أنت من النساء»!! فخجل واستحيا، وقام من فَوْره فتجهز وسار مع الناس.

أبو سفيان يفلت بالعير

وسار أبو سفيان بالعير يتشمم الأخبار فى طريقه؛ حتى إذا قرب من بدر تقدم العيرَ حَذِرًا حتى ورد الماء، فسأل هناك عن أخبار المسلمين؛ فعلم أن راكبين كانا قد نزلا على تل هناك، فأناخا راحلتيهما ساعة حتى استَقَيا من الماء، ثم رحلا. فذهب أبو سفيان إلى ذلك التل، ونظر فى مناخ الراحلتين، فأخذ شيئًا

(١) الجدع: قطع الأنف أو الأذن أو اليد أو الشفة.

من أبعارهما وفركه فى يده، فوجد فيه آثار النوى؛ فعلم أن الراكبين من المدينة، فقال: «هذه - والله - علائف يثرب، وهذه عيون محمد قد أقبلت تتحسس أخبارنا»! ورجع مسرعًا إلى العير، فجعل يضرب وجوهها ويحوِّلها عن السير إلى بدر، متجهًا بها إلى ساحل البحر، تاركًا بدرًا إلى يساره؛ فاستطاع أن ينجو بأموال قريش.

وادى بدر

وكانت «بدر» موسمًا من مواسم العرب يجتمع لهم بها سوق كل عام، وماءً مشهورًا بين مكة والمدينة، ومحطًّا للقوافل الذاهبة إلى الشام، بينه وبين المدينة نحو ستين ومائة كيلو متر. «وهو سهل رملى يَحُدُّه من الشمال والشرق تلال شديدة الانحدار ومن الغرب كُثبان رملية، ومن الجنوب منحدر صخرى منخفض، وينساب فى واديه جدول ماء يَعبُره من الشرق إلى الغرب، ويتقطع هذا الجدول هنا وهناك فيصبح آبارًا كثيرة، فيحيطها المسافرون بسدود فتصير أحواضًا»[1].

(١) بودلى.

الرسول يعلم بخروج قريش فيستشير أصحابه فيما ينبغى عمله

ومضى رسول الله ﷺ بأصحابه حتى وصل إلى واد يقال له « ذَفِران ». وهناك جاءه النبأ بأن قريشًا قد خرجت بأجمعها لتحمى عيرها، وجاءه كذلك رسولاه اللذان بعثهما من بيوت السقيا، فأخبراه بما علما من أمر العير؛ فجمع رسول الله ﷺ أصحابه، فأخبرهم بما كان من خروج قريش، واستشارهم فيما يجب أن يكون. فكره فريق منهم لقاء قريش وهم على غير أهبة لقتال - وكانوا إنما خرجوا لأجل العير - وقالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم: « هلّا ذكرت لنا القتال فنستعد »! فكره رسول الله لأصحابه أن يجبُنوا عن لقاء قريش، وقدّر كل ما هنالك من عواقب؛ فجعل يكرر عليهم قوله: « ما ترون فى قتال القوم »؟ فيقولون: « لا والله مالنا بقتال العدو طاقة، ولكنا أردنا العير ». عند ذلك تغير وجه رسول الله ﷺ وبدا عليه الغضب، فأدرك القوم ما هنالك من خطر عليهم إذا هم خالفوا عن رغبة الرسول، وقام فريق منهم يدعو إلى القتال؛ فقام أبو بكر فقال فأحسن، وقام عمر فقال فأحسن، ثم قام المقداد ابن عمرو فقال: « يارسول الله، امض لما أمرك الله به فنحن معك! والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى:

﴿اذهبْ أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون﴾؛ ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون.. فو الذى بعثك بالحق لو سرت بنا إلى بَرْك الغِماد[1] لجالَدنا معك من دونه حتى تبلغه»! فقال له رسول الله خيرًا، ودعا له بخير.

ثم قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «أشيروا علىَّ أيها الناس».. يريد بذلك الأنصار؛ لأنهم كانوا أكثر القوم عددًا، وكانوا قد عاهدوا رسول الله على أن يمنعوه فى ديارهم؛ أما فى خارج ديارهم فلم يكن العهد يلزمهم، إلا أن يروْا ذلك من أنفسهم. فلما قال ذلك رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قال سعد بن معاذ: «لعلك تريدنا يا رسول الله، :؟ قال: «أجل». فقال سعد: «إنك عسى أن تكون خرجت لأمر وأحدث الله لك غيره؛ فانظر الذى أحدث الله إليك فامض له، فإنا قد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك عهودنا على السمع والطاعة، ولعلك يارسول الله تخشى ألا تكون الأنصار ترى عليها ألا ينصروك إلا فى ديارهم؛ وإنى أقول عن الأنصار وأجيب عنهم: فاظْعَنْ يارسول الله حيث شئت، وصِلْ حبل من شئت واقطع حبل من شئت، وسالم من شئت وعاد من شئت، وخذ من أموالنا ما شئت،

---

(١) برك الغماد: مكان ممعن فى البعد، قيل إنه باليمن وقيل بغيرها.

وما أخذت من أموالنا أحبُّ إلينا مما تركت، وما أمرت فيه من أمر فأمرنا تَبَع لأمرك، فامض يارسول الله لما أردت، فنحن معك، والذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناهُ معك، ما تخلف منا رجل واحد! وما نكره أن تلق بنا عدوّنا غدًا، إنا لصُبُر فى الحرب، صُدُق عند اللقاء، ولعل الله يريك منا ما تَقَرُّ به عينك فسر على بركة الله »! فسرَّ لذلك رسول الله ﷺ وانبسط وجهه، وبدا عليه البشر والنشاط، فقال: سيروا على بركة الله وأبشروا، فإن الله وعدنى إحدى الطائفتين والله لكأنى أنظر إلى مصارع القوم»!

رسول الله يكتم أمره عن الناس

ثم مضى رسول الله ﷺ بأصحابه حتى وصل وادى بدر، فنزل بالعدوة الدنيا منه، وهى الجانب القريب من المدينة. وكان صلى الله عليه وسلم شديد الحرص على كتمان أمره عن الناس، حتى لا يقف على حقيقتهم أحد، ولا يعرف مقصدهم أحد، فأمر بأن تُقطع الأجراسُ من أعناق الإبل، وجعل كلما نزل منزلا يتحسس أخبار القوم، ويسأل عنهم فى حيطة وحذر.

روى ابن إسحاق وغيره، أن رسول الله ﷺ نزل قريبًا من بدر، فركب هو ورجل من أصحابه حتى وقف على شيخ من

العرب، فسأله عن قريش وعن محمد وأصحابه وما بلغه عنهم؛ فقال الشيخ : «إذا أخبرتنا أخبرناك». قال : «أذاك بذاك»؟ قال : «نعم». قال الشيخ : «فإنه بلغني أن محمدًا وأصحابه خرجوا يوم كذا وكذا؛ فإن كان صدَق الذى أخبرنى فهم اليوم بمكان كذا وكذا - للمكان الذى نزل به رسول الله وأصحابه - وبلغنى أن قريشًا خرجوا يوم كذا وكذا، فإن كان الذى أخبرنى صدَقنى فهم اليوم بمكان كذا وكذا» - للمكان الذى نزلت فيه قريش - فلما فرغ من خبره قال : «ممن أنتما»؟ فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم : «نحن من ماء» - وأشار بيده نحو العراق - ثم انصرف عنه؛ فجعل الشيخ يقول : «ما من ماء!.. أمن ماء العراق»؟ ثم رجع رسول الله إلى أصحابه.

فلما أمسى، بعث على بن أبى طالب والزبير بن العوام وسعد بن أبى وقاص فى نفر من أصحابه إلى ماء بدر، يلتمسون الخبر، فوجدوا سُقاة قريش يستقون لهم، فأمسكوا بغلامين منهم، فجاءوا بهما ورسول الله يصلى. فجعل القوم يسألونهما : لمن أنتما؟ وهم يرجون أن يكونا من سقاة العير؛ فقال الغلامان : نحن من سقاة قريش، بعثونا نسقيهم من الماء. فظنوا أنهما يكذبان، فجعلوا يضربونهما ثم يسألونهما، فيقولان : نحن لقريش. فلما أوجعوهما ضربًا قالا : نحن لأبى سفيان.

فتركوهما. فلما فرغ صلى الله عليه وسلم من صلاته قال: «إذا صدّقاكم ضربتموهما، وإذا كذباكم تركتموهما!! صدقا والله، إنهما لقريش». ثم سألهما عن قريش فقالا: هم - والله - وراء هذا الكثيب الذى ترى بالعُدْوَةِ القُصْوَى. فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «كم القوم؟» قالا: كثير، قال: «ما عدتهم؟» قالا: لا ندرى. قال: «كم ينحرون كل يوم» قالا: يوما تسعًا ويومًا عشرًا من الجُزُر. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «القوم فيما بين التسعمائة والألف». ثم قال لهما: «فمن فيهم من أشراف قريش»؟ فجعلا يذكران له من أسماء أشرافها حتى أتيا على كل أسمائهم. فأقبل رسول الله ﷺ على أصحابه فقال لهم: «هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها»! فعلم المسلمون أنها الحرب لا محالة، وأنه لابد لهم من لقاء قريش وهى فى أقوى قوة وأعظم استعداد.

الشيطان يجد مدخلا إلى بعض القلوب

وهنا وجد الشيطان مدخلا إلى بعض القلوب، فجعل يصور للقوم ما هم عليه من ضآلة العدد وضعف الأُهْبة وقلة السلاح، ويصور قريشًا وقد خرجت على نية الحرب، وأقبلت فى عددها وعدتها، واتخذ من خروج أشراف قريش فى طليعة الجيش دليلا يقنع به المؤمنين، بأن قريشًا قد أعدت نفسها لمعركة

فاصلة. فماذا تكون النتيجة إذا التقى الجيشان: هـذا قـد خـرج على غير أهبة، وهذا قد أخذ للـنزال أهبتـه وأحـكم لـه استعداده؟ لا شك أنها نتيجة معروفة.

وكان المنزل الذى نزل به المسلمون بعيـدًا عـن الماء؛ وكان بينهم وبين الماء رملة دَهْسَة تسيخ فيها الأقدام، فظمئ المسـلمون حتى جُهدوا، وأصابهم حرج شـديد حـين أعـوزهم الماء لـكى يستقوا ويتطهروا ويصلوا - ولم يكن قـد رُخّص لهـم فى التيمـم بعد - وهنا وجد الشيطان مـدخلا آخـر، فجعـل يـوسوس للمسلمين ويلق فى قلوبهم الغيـظ، ويخـوفهم أن يُقَطِّع العـطش رقابهم ويُذهب قواهم، فيتحكم المشركون فيهم كيف شاءوا.

« والماء فى الصحراء مادة الحياة، فضـلا على أن يـكون أداة النصر. والجيش الذى يَفْقِـد الماء فى الصـحراء، يفقـد أعصـابه قبل أن يفقد حياته. والنفوس التى تدخل المعركة فى مثل هـذا الحرج وفى مثل هذا القلق، تـدخلها مـزعزعة مهـزومة مـن داخلها »[1].

نجدة السماء

حينذاك جاءت نجـدة السماء؛ فـأنزل الله المطـر، فشرب

(١) فى ظلال القرآن.

المسلمون وتطهروا، وملئوا الأسقيةوسقَوا الركائب، وتلبد الرمل تحت أقدامهم فسهل عليه السير، واستراح المسلمون من الجهد الذى أصابهم، ومن الحرج الذى أقلقهم؛ وأصابتهم غشية من النعاس فانقلبوا نيامًا، فما نهضوا من نومهم إلا وقد تبدل حالهم، فإذا خوفهم قد صار أمنًا، وإذا قلقهم قد غدا طمأنينة، وإذا خوَرُهم قد أصبح جرأة وثباتًا، وإذا هم شيء آخر غير الذى كانوا.. وفى ذلك يقول الله تعالى: ﴿إذ يُغَشِّيكم النعاسَ أمَنَةً منه وينزِّلُ عليكم من السماء ماءً ليطهركم به ويُذهبَ عنكم رِجْزَ الشيطان ولِيربِطَ على قلوبكم ويُثَبِّتَ به الأقدام﴾[1].

ويقول ابن عباس فى تفسير ذلك: نزل النبى، صلى الله عليه وسلم، حين سار إلى بدر، والمسلمون بينهم وبين الماء رملة دَعْصة[2]. وأصاب المسلمين ضعف شديد، وألقى الشيطان فى قلوبهم الغيظ؛ يوسوس بينهم: تزعمون أنكم أولياء الله وفيكم رسوله، وقد غلبكم المشركون على الماء وأنتم تصلون مُجْنِبين! فأمطر الله عليهم مطرًا شديدًا، فشرب المسلمون وتطهروا، وأذهب الله عنهم رجز الشيطان؛ وثبت الرمل حين أصابه المطر، ومشى الناس عليه والدواب، فساروا إلى القوم.

(١) سورة الأنفال الآية ١١.

(٢) رملة دعصة: تغوص فيها الأقدام.

قريش تنقسم على نفسها فى الطريق

أما قريش فقد خرجت على بكرة أبيها، فى مظهر يدل على القوة والخيلاء، وينبئ بما اعتزمته من سحق محمد وصحبه، هؤلاء الذين تطاولوا عليهم، وتجرءوا على التصدى لعيرهم، وهم الأعزة الذين لم يذلوا، وأهل الحرم وسدنة البيت، و ﴿زينَ لهمُ الشَّيطان أعمالهمُ، وقال لا غالبَ لكُم اليومَ من الناسِ وإنِّى جارٌ لكم﴾؛ فخرجوا معتزين بقوتهم، مُدَلِّين بمكانتهم بين العرب، معتقدين أنهم سيضربون الضربة القاصمة التى تقضى على الإسلام وأهله، وكأن لسان حالهم يقول كما قال فرعون من قبل فى قوم موسى: ﴿إنَّ هؤلاء لشرذمةٌ قَليلونَ * وإنَّهم لنا لغائظُون * وإنَّا لجميعٌ حاذِرُون﴾[1].

ومع أن صوت النذير قد أزعجهم فخرجوا جميعًا، فإن كثيرًا منهم كانوا لا يريدون أن يزيدوا على إنقاذ العير؛ فلما أن نجا أبو سفيان بالعير، وبعث إليهم يخبرهم بذلك، رغب كثير منهم فى الرجوع. ولكن أبا جهل ركب رأسه، وعز عليه أن يرجعوا فتضعف شوكتهم بين العرب، ويطمع المسلمون فيهم؛ فأخذ يصيح فى القوم: والله لا نرجع حتى نرد بدرًا فنقيم عليها ثلاثًا،

(١) سورة الشعراء الآيات ٥٤ - ٥٦.

فننحر الجزر، ونطعم الطعام، ونسق الخمر، وتعزف علينا القيان، وتسمع العرب بنا وبمسيرنا وجمعنا، فلا يزالون يهابوننا أبدًا..! » وجعل يحرض الناس على مواصلة السير.

وانقسم القوم فريقين: فريق يرى أن الخروج إنما كان لإنقاذ العير، وقد نجاها الله، فلا معنى إذن للسير بعد ذلك؛ وفريق يرى رأى أبى جهل فيدعو إلى مواصلة السير، حتى لا تسخر العرب منهم. وكان من الفريق الأول بنو عدى وبنو زهرة فرجعوا؛ أما بقية القوم فقد واصلوا السير تحت ضغط أبى جهل وشيعته، وإن كان بعضهم لا يزال يسير على غير ما يرى من الرأى، وما يضمر من العقيدة؛ إنما يسير تحرجًا ومداراة لسفاهة السفهاء.. وما زالوا يسيرون وينزلون بكل منزل، فينحرون الجزر ويطعمون الطعام، ويشربون ويغنّون ويَقصِفون، ويعلنون عن أنفسهم بكل وسائل الإعلان والدعاية، حتى وصلوا إلى وادى بدر، فنزلوا بالعُدْوَة القصوى، وهى الجانب الذى يبعد من المدينة ويتجه نحو مكة.

الإيمان بالحق أقوى أسباب النصر

وهكذا جمع الله الفريقين بوادى بدر: المسلمون بالعدوة الدنيا مما يلى المدينة، والمشركون بالعدوة القصوى مما يلى مكة؛

أما العير التى من أجلها خرج الفريقان، فقد انحدر بها أبو سفيان إلى ساحل البحر فنجا بها. وكان فى هذا كفاية لأن يرجع المسلمون ويرجع المشركون، إذ فات الغرض الذى كان يهدف له كلا الفريقين؛ ولكن لله تدبيرًا فوق تدبير البشر، وإرادة تحيط بإرادات الناس، وله الحكمة العليا فى كل ما يدبر وما يريد؛ فقد جمع بين الفريقين على غير موعد، ودبر بينهما أسباب اللقاء على قلة المؤمنين وضعف عدتهم، وكثرة المشركين وقوة استعدادهم، ليكون هذا اللقاء العجيب ـ الذى اجتمعت فيه كل عوامل النصر الظاهرية فى جانب المشركين، وكل عوامل الهزيمة الظاهرية فى جانب المؤمنين ـ فُرْقانًا بين الحق والباطل، وميزانًا يزن به الناس أسباب النصر والهزيمة فى حقيقتها لا فى ظواهرها... فليست كثرة العدد، ولا ضخامة الاستعداد، ولا قوة الدعاية، هى السبب الحقيقى فى النصر. إنما أسباب النصر فى صلاح العقيدة، وقوة الإيمان بها، وطول الصبر عليها، وصدق الجهاد فى سبيلها، وإن بلغت القلة المؤمنة ما بلغت من الضعف، وبلغت الكثرة الكافرة ما بلغت من القوة: ﴿ونُريدُ أن نَمُنَّ على الذين استُضْعِفوا فى الأرضِ ونجعلَهم أئمَّةً ونجعلَهم الوارثين * ونمكِّن لهم فى الأرضِ ونُرِىَ فِرْعونَ وهامانَ وجنودَهما منهم ما كانوا يَحذَرون﴾[1].

(١) سورة القصص آيتا ٥،٦.

« وقد أراد الله أن تجرى المعركة على هذا النحو - وهى المعركة الأولى بين الكثرة المشركة والقلة المؤمنة - لتكون فرقانًا بين تصوُّرين وتقديرين لأسباب النصر والهزيمة، ولتنتصر العقيدة بقوتها على الكثرة فى عتادها، فيتبين للناس أن النصر للعقيدة القوية الصالحة، لا للسلاح ولا للعتاد؛ وأن على أصحاب العقيدة أن يجاهدوا ويخوضوا غمار المعركة، غير منتظرين حتى تتساوى القوة المادية الظاهرية، لأنهم يملكون قوة أخرى لها ثقلها فى الميزان، هى قوة الحق نفسه؛ وأن هذا ليس كلامًا يقال، إنما هو واقع متحقق للعيان »[1].

وذلك مرمى قوله تعالى للمؤْمنين فى شأن هذه الغزوة: ﴿يا أيُّها الذين آمنُوا إذا لَقيتُم الذينَ كفروا زَحْفًا فلا تُوَلوهم الأدبَار * ومن يُوَلِّهم يومَئذٍ دُبُرَه إلا مُتَحرفًا لقتال أو مُتَحيِّزًا إلى فِئَةٍ فقد باء بغضبٍ من الله ومأْواه جَهنَّمُ وبِئْس المصير * فلَم تَقتلوهم ولكِنَّ الله قَتلَهم، وما رَمَيْتَ إذْ رميتَ ولكن الله رَمَى، ولِيُبْلى المؤمنين منه بَلاء حسَنًا، إن الله سميعٌ عليم * ذلكُم وأن الله مُوهِنُ كَيْدِ الكافرينَ﴾[2]. وقوله بعد ذلك للمشركين: ﴿إنْ تَسْتَفتِحُوا فَقدْ جاءَكُم الفتَح وإنْ تَنْتَهوا فهو

---

(١) فى ظلال القرآن مع بعض التصرف.

(٢) سورة الأنفال الآيات ١٥ - ١٨.

خيرٌ لكم وإنْ تَعودوا نَعُدْ ولن تُغْنِيَ عنكم فِئَتُكم شيئًا ولو كَثُرَتْ وأنَّ الله مع المؤمنين﴾[1].. وقوله تعالى لرسوله، صلى الله عليه وسلم: ﴿إذْ يُرِيكَهم الله فى مَنامِك قليلا ولو أرَاكَهم كثيرًا لَفَشِلْتُم ولَتَنازعْتم فى الأمرِ ولكنّ الله سلَّم إنه عليمٌ بذات الصدور * وإذْ يُرِيكُمُوهم إذ الْتَقَيْتُم فى أعينكم قليلا ويُقَلِّلُكم فى أعْيُنِهم لِيَقْضِيَ الله أمرًا كان مفعولا وإلى الله تُرْجَع الأمور»[2].

وفى القرآن آيات كثيرة تشير إلى هذه الحقيقة، التى كثيرًا ما يخطئ الناس فهمها، وكثيرًا ما تخدعهم الظواهر فينسونها ويغْفُلون عنها.. فالمسألة فى حقيقتها ليست كما هى فى ظواهرها، وليست كما يتصورها الناس حين تخدعهم كثرة جنود الباطل وضخامة استعداده، فيعتقدون أن النصر للكثرة وأن الحق للقوة، ويلتبس عليهم الأمر، فينسَوْن أن القوة إنما هى للحق وإن قل أنصاره، لأن الله مع الحق دائماً: ﴿والله غالبٌ على أمرِه ولكنّ أكثَر الناس لا يعلمون﴾[3].

---

(١) سورة الأنفال الآية ١٩.
(٢) سورة الأنفال آيتا ٤٣، ٤٤.
(٣) سورة يوسف الآية ٢١.

الرسول يقبل مشورة أصحابه

وكان صلى الله عليه وسلم أعرف الناس بهذه الحقيقة، وأوثقهم إيمانًا بنصر الله سبحانه، فبات أصحابه نيامًا، وبات هو قائماً يصلي ويدعو ربه أن يُنجز له ما وعده. وما زال كذلك حتى طلع الفجر، فدعا أصحابه إلى الصلاة فصلى بهم، وحرضهم على القتال؛ ثم خرج يبادر قريشًا إلى الماء يريد أن يسبقهم إليه؛ حتى إذا وصل أول ماء من مياه بدر نزل به. وكان الحُباب بن المُنذر خبيرًا بمياه بدر، فقال: «يا رسول الله، أهذا منزل أَنْزَلَكه الله ليس لنا أن نتقدم عنه أو نتأخر، أم هو الرأى والحرب والمكيدة؟» فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «بل هو الرأى والحرب والمكيدة». فقال الحباب: «يا رسول الله، ليس لك هذا بمنزل؛ فانهض بالناس حتى تأتى أدنى ماء من القوم، فإنى أعرف غزارة مائه وكثرته، فننزله، فنغور ما عداه من الآبار، ثم نبنى عليه حوضًا فنملؤه ماء، فنشرب ولا يشربون». فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «لقد أشرت بالرأى». ونهض بأصحابه حتى نزلوا حيث أشار الحباب، فصاروا بأقرب منزل من القوم، حتى ليس بينهم وبينهم إلا كثيبٌ من الرمل، ثم بنوا الحوض على البئر التى أشار بها الحباب، وطمسوا كل ما وراءهم من الآبار.

وكما أشار الحباب بن المنذر ببناء الحوض، أشار سعد ابن معاذ على رسول الله ﷺ أن يبنوا له عريشًا يشرف منه على المعركة، ويوجهها، ويأمن غرَّة العدو. فقال: «يا نبى الله، ألا نبنى لك عريشًا تكون فيه، ونُعدّ عندك ركائبك، ثم نَلقى عدونا؟ فإذا أعزّنا الله وأظهرنَا على عدونا كان ذلك ما أحببنا؛ وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك، فلحقت بمن وراءنا من قومنا؛ فقد تخلف عنك أقوام ما نحن بأشد لك حبًّا منهم، ولو ظنوا أنك تلقى حربًا ما تخلفوا عنك، يمنعك الله بهم، ويناصحونك ويجاهدون معك..!» فأثنى عليه رسول الله ﷺ ودعا له بخير. ثم بُنى العريش على تلٍّ مشرف كما أشار سعد، وأعِدَّت عنده أنجب الركائب، ليكون فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم.

الرسول يَصفُّ أصحابه ويحثهم على الإخلاص والصبر

وقام رسول الله ﷺ يسوى الصفوف، ويتفقد الرجال، ويهيئ أصحابه للقتال، ودفع رايته إلى مُصْعَب بن عُمَيْر، فتقدم بها إلى موضعها الذى أمره أن يضعها فيه. ثم وقف، صلى الله عليه وسلم، ينظر إلى الصفوف، فاستقبل بها المغرب، وجعل الشمس وراءه؛ وأقبل المشركون فاستقبلوا الشمس.

وخطب رسول الله ﷺ أصحابه، يحثهم على القتال

ويرغبهم فى الأجر؛ فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «أما بعد، فإنى أحثُكم على ما حثكم الله عليه، وأنهاكم عما نهاكم عنه؛ فإن الله عظيم شأنُه، يأمر بالخير ويحب الصدق، ويعطى الخير أهله على منازلهم عنده. وإنكم قد أصبحتم بمنزل من منازل الحق لا يقبل الله فيه من أحد إلا ما ابتغى به وجهَه؛ وإن الصبر فى مواطن البأس مما يفرّجُ الله به الهمّ، وينجِّى به من الغم، وتُدْرَك به النجاةُ فى الآخرة. فيكم نبى الله يحذركم ويأمركم، فاستحيوا اليوم أن يطَّلع الله، عز وجل، على شىء من أمركم يَمْقُتكم عليه، فإن الله يقول: ﴿لَمَقْتُ الله أكبرُ من مَقْتِكم أنفسكُم﴾. وأبْلُوا ربَّكم فى هذه المواطن أمرًا تستوجبوا به الذى وعدكم من رحمته ومغفرته، فإن وعده حق، وقوله صدق، وعقابه شديد؛ وإنما أنا وأنتم بالله الحى القيوم، إليه ألجأنا ظهورنا، وبه اعتصمنا، وعليه توكلنا وإليه المصير. يغفر الله لى وللمسلمين».

هيئة المؤمنين فى عزمهم وتصميمهم تفزع أعداءهم

وأقبلت قريش تنصبّ إلى الوادى من الكثيب. فلما رأى رسول الله ﷺ كثرتهم وقلة أصحابه، توجه إلى الله يستعينه عليهم، فقال: «اللهم هذه قريش قد أقبلت بخُيَلائها وفخرها

تحادُّك وتكذب رسولك.. اللهم فنصرَك الذى وعدتنى! اللهم أحِنْهم الغَداة »[1].

وأراد المشركون أن يستوثقوا من رجال المسلمين قبل أن ينازلوهم، فأرسلوا عُمَيْر بن وهب الجُمَحى يَحزِر لهم أعدادهم[2] ويتعرف أحوالهم؛ فلما اطَّلع عمير على المسلمين، رآهم فى منظر يبعث الرعب ويستوجب الحذر!.. قوم قليلٌ عددهم ولكن صور الموت تتراءى من مناظرهم، قد تراصّت صفوفهم كما يتراص البنيان، وتلاحمت أجسامهم كما يتلاحم الحديد، وجثَوا على الركب مستوفزين[3]، يتنمرون تنمُّر الأسود، ويتلمَّظون[4] تلمظ الأفاعى، ويدورون بعيون تبعث الموت حيثما دارت؛ وتتحرك شفاههم بمالا تظهره أصواتهم.. يسودهم صمت رهيب، وتصميم عجيب، وعزم صارم على الاستماتة فى سبيل العقيدة التى آمنوا بها، وجاهدوا فى سبيلها، حتى لكأنهم باعوا لها نفوسهم، فلا يريدون أن يثوبوا بها إلى أهليهم.

فأُخذ عمير بهذا المنظر المفزع، ورجع إلى قومه فقال لهم:

---

(١) يسأل الله أن يهلكهم فى هذا الصباح.

(٢) يقدر عددهم على وجه التقريب.

(٣) مستوفزين: متهيئين للوثوب.

(٤) يتلمظون: يحركون ألسنتهم على شفاههم، وهو من هيئات الاستعداد والتحفز.

« يا معشر قريش، البلايا تحمل المنايا.. نواضحُ يثرب[1] تحمل الموت الناقع..! قوم ليس لهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم.. والله ما أرَى أن يُقتَل رجل منهم حتى يَقتُل رجلا منكم، فإذا أصابوا منكم أعدادهم فما خير العيش بعد ذلك؟ فَرَوْا رأيكم..! » فتعاظمت فى أعين المشركين هيبة المؤمنين، وأخذ الخلاف يدب بين صفوفهم من جديد، وجعل بعضهم يمشى إلى بعض، رجاء أن ينفضوا قبل أن تنشَب المعركة ويحتدم القتال.

وأدرك رسول الله ﷺ بصادق حسه ما بينهم من خلاف، فأراد أن يُعْذِر إليهم من نفسه؛ فأرسل إليهم عمر بن الخطاب يقول لهم : « ارجعوا؛ فإنه أنْ يلى هذا الأمرَ منى غيركُم أحبُّ إلىّ من أن تَلُوه منى ». فقال حكيم بن حزام : « قد عرض - والله - نصفًا فاقبلوه ».. ومشى إلى عتبة بن ربيعة فقال له : « يا أبا الوليد، أنت كبير قريش وسيدها والمطاع فيها، فهل لك ألا تزال تُذْكَر منها بخير آخرَ الدهر »؟ قال : « وما ذاك يا أبا خالد »؟ قال : « ترجع بالناس، وتحمل دم حليفك ابن الحضرمى، وما أصاب محمد من تلك العير ببطن نخلة ». قال عتبة : « قد فعلت، وأنت علىَّ بذلك ».

ثم قام عتبة فى المشركين يقول : « يا قوم، أطيعونى

---

(١) النواضح : الإبل التى تحمل الماء.

ولا تقاتلوا هذا الرجل وأصحابه، واعصبوا هذا الأمر برأسى، واجعلوا جُبنها بى، فإن منهم رجالا قرابتهم قريبة؛ ولئن أصبتموه لا يزال الرجل منكم ينظر إلى قاتل أبيه أو أخيه، فيورث ذلك منكم شحناء وأضغانًا، ولن تخلُصوا إلى قتلهم حتى يصيبوا منكم عَددهم، ولا آمَنُ أن تكون الدَّبَرة عليكم[1].. ! وأنتم لا تطلبون إلا دم هذا الرجل والعير التى أصاب، وأنا أحتمل ذلك وهو علىّ.. ! ياقوم، إن يَكُ محمد كاذبًا يكفيكموه ذُؤْبان العرب، وإن يكن مَلِكًا أكلتم فى ملك ابن أخيكم، وإن يكن نبيًّا كنتم أسعد الناس به.. ! ياقوم، لا تردوا نصيحتى ولا تسفهوا رأيى !! ».

وكان أبو جهل شيطانَ هذه المعركة، فجعل يسفِّه رأى عتبة ابن ربيعة، ويصفه بالجبن، ويُشيع فى الناس أنه لم يقل ما قال إلا خوفًا على ابنه أبى حذيفة؛ فقد رأى أصحاب محمد أكَلة جزور[2] فخاف على ابنه أن يقتل معهم. وجعل يحرض الناس على الشر ويقول: « لا والله لا نرجع حتى يحكم الله بيننا وبين محمد.. ! اللهم أقْطعُنا للرحم وآتانا بما لا نعرف، فأحِنْه الغَداة » وبعث إلى عامر بن الحضرمى الذى قتل أخوه فى نخلة،

(١) الدبرة: الهزيمة.

(٢) يعنى أن عددهم قليل.

فجعل يحرضه على أن يطلب ثأر أخيه؛ فقام ابن الحضرمي فجعل يحثو على نفسه التراب ويصيح: «واعُمَراه.. ! واعمراه.. !» فحمى الناس واستوثقوا على ما هم عليه من الشر، وأخذوا أُهبة الزحف واستعدوا للقتال.

المعركة

وعبأ رسول الله ﷺ أصحابه أحسن تعبئة، وحثهم على الثبات والصبر، وقال لهم: «لا تحملوا حتى آمركم، وإن اكتنفكم القوم فانضَحوهم عنكم بالنَّبل، ولا تَسُلوا السيوف حتى يغشَوْكم». ثم رجع إلى العريش فدخله ومعه أبو بكر، وقام سعد بن معاذ واقفًا على باب العريش متقلدًا سيفه، ومعه رجال من الأنصار، يحرسون رسول الله، صلى الله عليه وسلم، خوفًا عليه أن يَدْهَمه العدوّ من المشركين، والنجائب مهيأة له إن احتاج إليها ركبها.

وبدأت قريش الزحف، فاندفع من صفوفها الأسودُ بن عبد الأسد المخزومى إلى حوض الماء الذى أقامه المسلمون وهو يقول: «أعاهد الله لأشرَبنَّ من حوضهم، أو لأهدمنه، أو لأموتن من دونه»! فتلقاه حمزة بن عبد المطلب بضربة من سيفه أطنّ بها ساقه[1]، فوقع على الأرض، ثم استمر يزحف حتى وصل إلى

(١) أطن بها: قطعها.

الحوض، فجعل حمزةُ يتابعه بالسيف حتى قتله فى الحوض.

وحَمِى عتبة بن ربيعة من قول أبى جهل، فاندفع من الصف بين أخيه شيبة وابنه الوليد يدعون إلى المبارزة، ونادَوْا: «يامحمد، أخرج إلينا أكفاءنا» فأخرج رسول الله ﷺ، لهم حمزة ابن عبد المطلب، وعبيدة بن الحارث بن عبد المطلب، وعلى بن أبى طالب، فبارز عبيدة عتبة، وبارز حمزة شيبة، وبارز علىّ الوليد. فأما حمزة وعلى فلم يلبث كل منهما أن قتل صاحبه، وأما عبيدة وعتبة فقد اختلفا فيما بينهما ضربتين، فوقع كلاهما على الأرض، فكرّ حمزة وعلىّ بأسيافهما على عتبة فذَفَّف[1] عليه وحملا عبيدة فجاءا به إلى رسول الله ﷺ، وقد قطعت ساقه وجعل مُخها يسيل؛ فأفرشه رسول الله قدمه الشريفة، وبشره بالشهادة.

وهنا حمى المشركون، وهجموا على صفوف المسلمين هجوم السيل الجارف، فأمر رسول الله ﷺ أصحابه أن يكسروا هجماتهم بالنبل، وهم مرابطون فى أماكنهم. فلما أوشك الصفان أن يتلاحما، أمر رسول الله أصحابه أن يحملوا عليهم، ونادى قائلا: «والذى نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل، فيقتَل صابرًا محتسبًا، مقبلاً غير مدبر إلا أدخله الله الجنة.. !!».

فهجم المسلمون على المشركين بقلوب ملؤها الإيمان بالحق،

---

(١) ذفف: أجهزا عليه.

والرغبة فى الشهادة، والطمع فى ثواب الله؛ وجعلوا أهدافهم رءوس الكفر، يتصيدونهم وسط الجموع الزاحفة، ثم ينقضون عليهم كالصواعق، وهم يتصايحون تصايح الأسود: «يامنصور، أمِتْ أمِتْ !!»

ذكر الجنة يلهب حميّة المسلمين

وهبت عليهم رياح الجنة، فهانت عليهم الحياة، ولذت لهم الشهادة، واستعجلوا الموت فى سبيلها.. حتى إن عمير ابن الحمام ليَصيح من فرْط سروره: «بَخٍ بَخٍ !! أفما بينى وبين أن أدخل الجنة، إلا أن يقتلنى هؤلاء؟» ثم يرمى من يده تمرات كان يأكل منها، ويقول: «لئن أنا حييت حتى آكل تمراتى هذه إنها لحياة طويلة !!؟» ثم يندفع إلى المعركة اندفاع السهم وهو يصيح:

«ركضا إلى الله بغير زادِ
إلا التقى وعملَ المعاد
والصبرَ فى الله على الجهاد
وكل زاد عُرْضة النَّفاد
غيرَ التقى والبر والرشاد»

وحتى إن عوف بن الحارث ليَسألُ رسول الله ﷺ عما

يُضحك الرب من عبده، فيقول له رسول الله، صلى الله عليه وسلم : «غَمْسُه يَده فى العدو حاسرًا..» فينزع درعه فيقذفها، ثم يأخذ سيفه ويخوض فى المعركة حاسرًا، لا يبالى أوقع على الموت أم وقع الموت عليه!!

جند الله فى المعركة

وأمد الله المؤمنين بروح من عنده، فازدادت حماستهم، وارتفعت حرارتهم، وتضاعفت قواهم؛ حتى ليحس الواحد منهم أنه قد صار كفئًا لعشرة من المشركين، وأن يد الله فوق يده، تحرك سيفه فيضرب، وتسدد رميته فيرمى؛ وأنه فى حشد من جنود الله الخفية، التى لا يدرك كنهها ولا يعرف مداها.

وتضاءلت فى أعين المؤمنين كثرة المشركين، فجعلوا يفترسونهم كما تفترس الذئاب الغنم، ويكتسحونهم كما يكتسح السيل الغُثاء؛ وانعقد فوق المعركة جو رهيب، ملأ قلوب المشركين بالرعب، بقدر ما ملأ قلوب المؤمنين بالقوة والثبات..

الرسول يدعو ربه ويستغيثه

وكان رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فى عريشه، يتابع المعركة وقلبه متعلق بالله عز وجل؛ تارة ينزل إلى المعمعة فيُنهض الهم، ويقوِّى القلوب، ويحث على القتال، وتارة يصعد

إلى العريش يدعو ربه ويستغيثه، ويستنجزه وعده له بالنصر، ويقول فيما يقول: «اللهم أنْشُدك عهدَك ووعدك.. ! اللهم إن تَهلكْ هذه العصابة لا تعبد بعدها فى الأرض.. ! اللهم نصرك الذى وعدتنى.. ! اللهم أرعبْ قلوبهم، وزلزل أقدامهم !!» فما زال يدعو ويستغيث حتى سقط رداؤه عن مَنكِبيه، فالتزمه أبو بكر فجعل يسوى عليه رداءه، ويقول له إشفاقًا عليه مما به: «يانبي الله، بعضَ مناشدتك ربَّك، فإن الله منجزٌ لك ما وعدك».. واستغرق رسول الله فى دعائه واستغاثته، حتى خَفَق خَفقةً من نعاس، ثم أفاق مستبشرًا يقول لأبى بكر: «أبشر يا أبا بكر، أتاك نصر الله !! هذا جبريل آخذٌ بعنان فرسه يقوده على ثنايا النَّقْع»[1].

ونزل رسول الله ﷺ إلى أصحابه يشد عزائمهم، ويبشرهم بنصر الله، ويقول لهم: «شُدُّوا.. سَيُهزَم الجمعُ ويُوَلونَ الدُّبُرَ.. من قتل قتيلا فله سَلَبُه، ومن أسر أسيرًا فهو له».. فحمل المسلمون عليهم حملة صادقة، تصدعت لها جموعهم، وانهارت أمامها قواهم.

المشركون ينهزمون

ورأى المشركون ما أصاب سادته، فألقى الرعبُ فى قلوبهم،

(١) النقع: الغبار الذى يتطاير من أثر المعركة.

وأخذوا يُلقون بأثقالهم ويفرون من المعركة، نجاةً بأنفسهم من الموت؛ فانقض المسلمون عليهم يأسرون ويهزِمون ويغنَمون.

فلما وَضَع القوم أيديهم يأسرون، نظر رسول الله ﷺ إلى سعد بن معاذ، فرأى فى وجهه الكراهية لما يصنعون، فقال: «لكأنك ياسعد تكره ما يصنع القوم»؟ قال: «أجَلْ - والله - يارسول الله.. ! كانت أولَ وقعة أوقعها الله بأهل الشرك، فكان الإثخان فى القتل أحبَّ إلى من استبقاء الرجال».

وهكذا تصدعت جموع الشرك أمام قوة الإيمان، وانجلت المعركة عن سبعين قتيلا وسبعين أسيرًا من المشركين وغنم المسلمون كل ما خلف المشركون وراءهم من زاد وعتاد. أما الذين فازوا بالشهادة من المؤمنين، فكانوا أربعةَ عشرَ شهيدًا.

فهرس

الصفحة

المقدمة	٣
عام الحزن – انتشار الدعوة فى قبائل العرب	٥
مرض أبى طالب	٦
مصيبتان عظيمتان	٨
فقد النصير بموت أبى طالب – وفقد الأنيس بموت خديجة	٩
اجتراء قريش على النبى	١١
يضعون السلا عليه وهو يصلى	١٢
ويخنقونه وهو قائم فى المسجد	١٣
صمود النبى لإيذاء قريش	١٥
مواقف التحدى – النبى لا يتزحزح عن موقفه	١٧
قريش تتحدى بطلب المعجزات	١٩
استخدام القوة	٢٤
الرسول يحزن لعناد قريش	٢٥
ربه يخفف عنه ويثبته	٢٧

الصفحة

الخروج إلى الطائف - يئس النبي من قريش ٣٠
فاتجه إلى الطائف ٣١
ثقيف تحرص على دينها ٣٢
أشراف ثقيف تسخر من النبي ٣٣
وتسلط عليه سفهاءها ٣٤
موقف حرج ٣٥
الرسول يستغيث بربه - عداس يكرم النبي ويؤمن به ٣٧
الرسول يرجو الهداية لأعدائه ٣٩
الجن يستمعون القرآن ٤٠
الرسول يعود إلى مكة ٤١

عرض الدعوة على القبائل - أسواق العرب فى موسم الحج .. ٤٤
قريش تستعد لتشويه الدعوة ٤٥
قريش تحذر من سحر محمد ٤٧
القبائل تستجيب لسعى قريش ٤٨
صورة من صور العرض ٥٠
كان الرسول ينشد المنعة والحماية حتى يبلغ رسالة ربه .. ٥٤
كان تأثير قريش على العرب شديدًا - ولكنه لفت
أنظارهم إلى الدعوة ٥٥

الصفحة

صورة من صور التأثير ٥٦

بيعة الأنصار - اختلاف الطبيعة بين مكة والمدينة ٥٩
سكان مكة عرب وسكان المدينة خليط ٦٠
كان اختلاف العناصر فى المدينة سبباً فى النزاع ٦٢
كان هذا النزاع سبباً فى تهيئة النفوس للإسلام ٦٥
الأنصار يلاقون النبى فى موسم الحج ٦٦
صورة من صور الدعوة إلى الإسلام فى المدينة ٦٨
الدعوة تنتشر فى المدينة بعد طول احتباسها ٧١
الرسول يمهد للهجرة ٧٢
البيعة الكبرى ٧٣
كانت هذه البيعة قرة عين المسلمين ٧٨
وصدمة عنيفة للمشركين ٧٩
وحدًا فاصلاً بين عهدين ٨١

المؤامرة الكبرى - قريش تحسّ الخطر فى بيعة الأنصار ٨٣
المسلمون يتسللون تباعًا إلى المدينة ٨٥
هجرة أبى سلمة وزوجته ٨٦
هجرة صهيب - ردّ عياش إلى مكة ٨٨
هجرة عمر - الرياح تصفر فى دور المهاجرين ٩٠

الصفحة

الأنصار يؤون المهاجرين ٩١

قريش تأتمر بالرسول ٩٢

الرسول يرسم خطته للخروج من مكة ٩٤

غار ثور - فتيان قريش يرصدون دار النبى ٩٧

لم يكن الفرار أمرًا سهلاً ٩٩

الرسول وصاحبه فى الغار ١٠١

الرسول مطمئن إلى رعاية ربه ١٠٢

الهجرة إلى المدينة - بدأ النبى هجرته إلى المدينة حين يئست قريش ... ١٠٤

النبى يلقى على مكة نظرة وداع حارّة ١٠٦

الدليل يتحرى مواضع الأمان فى الطريق ١٠٧

قريش تفرض مكافأة لمن يأتيها بمحمد ١٠٨

أم معبد ١١١

النبى فى قباء ١١٤

المدينة تحتفل بمقدم النبى ١١٦

أول خطبة لرسول الله فى المدينة ١١٨

الناقة تسير حتى تبرك فى موضع المسجد ١١٩

نزل النبى على أبى أيوب حتى بنى مسجده ١٢٠

الرسول يبعث فى طلب أهله ١٢١

الصفحة

المجتمع الإسلامى - بدأ فى المدينة عهد الأمن والاستقرار ١٢٣
الحياة الصالحة كما يريدها الإسلام ١٢٥
صلة المسلم بالله أساسها العبودية - الصلاة مظهر الصلة
بين العبد وربه ١٢٦

مسجد النبى - النبى يبنى المسجد على أبسط الأوضاع ١٣٠
مساكن النبى ١٣٣
الأذان والصلاة ١٣٤
صلة المسلم بالمسلم ١٣٦
صلة المسلم بغير المسلم ١٣٨
كانت المدينة أنسب البيئات ١٣٩

حماية العقيدة - كانت رسالة محمد إلى الناس كافة ١٤٣
كانت هجرة النبى فراراً بدعوته ١٤٦
ظلت قريش تطارد الدعوة فى المدينة ١٤٨
كان لابد للدعوة من قوة تحميها ١٤٩
لم تكن قريش وحدها هى العدو - كان اليهود يعادون الدعوة .. ١٥١
كان النبى يتودد إلى اليهود ١٥٤
وكان المنافقون يتظاهرون بالإسلام ١٥٧
وكان الأعراب يعادون الدعوة ١٥٩

الصفحة

القتال فى الإسلام ليس إلا دفاعًا عن العقيدة ١٦٠
لم يكن القتال وسيلة لإكراه الناس ١٦٢

حرب الأعصاب – برم المهاجرون بحياة المدينة ١٦٦
ضيق المنافقين والكفار بالمهاجرين ١٦٨
مرت بالمسلمين أزمات شديدة ١٧٠
صور من فقر المسلمين بالمدينة ١٧١
كان المهاجرون يقاسون شدة العيش ١٧٥
الرسول يرسل الكتائب فى طريق قريش ١٧٦
سرايا السنة الأولى ١٧٨
سرايا السنة الثانية ١٧٩
حرب أعصاب ١٨١
غلطة تحاول قريش استغلالها ١٨٣
القرآن يدافع عن المؤمنين ١٨٥

غزوة بدر – كان دفاع الله عن المسلمين مشجعًا ١٨٩
خرج الرسول معجلًا بفريق من أصحابه ١٩١
عرض الجند فرد صغارهم ١٩٢
كانوا يتبادلون الركوب لقلة الركائب ١٩٣
أبو سفيان مستنفر قريشًا لحماية أموالها ١٩٥

الصفحة

أبو سفيان يفلت بالعير ١٩٦

وادى بدر ١٩٧

الرسول يعلم بخروج قريش ١٩٨

رسول الله يكتم أمره عن الناس ٢٠٠

الشيطان يجد مدخلاً إلى بعض القلوب ٢٠٢

نجدة السماء ٢٠٣

قريش تنقسم على نفسها فى الطريق ٢٠٥

الإيمان بالحق أقوى أسباب النصر ٢٠٦

الرسول يقبل مشورة أصحابه ٢١٠

الرسول يصف أصحابه ويحثهم على الإخلاص ٢١١

هيئة المؤمنين فى عزمهم وتصميمهم تفزع أعداءهم ٢١٢

المعركة ٢١٦

ذكر الجنة يلهب حمية المسلمين ٢١٨

جند الله فى المعركة – الرسول يدعو ربه ويستغيثه ٢١٩

المشركون ينهزمون ٢٢٠

رقم الإيداع	١٩٨٧ / ٣٩٣٦
الترقيم الدولى ٩٧٧-٠٢-٢٠٦٠-٤	ISBN

٢ / ٨٧ / ١

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

Thanks to
assayyad@maktoob.com

To: www.al-mostafa.com